اختيارات شوقي ضيف للمدونة الفردية في النثر العربي " الجاحظ أنموذجا "

إعداد الدكتورة

خلود بنت راشد الشبانات

الأستاذ المساعد بقسم الأدب - كلية اللغة العربية

بجامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

اختيارات شوقي ضيف للمدونة الفردية في النثر العربي الجاحظ أنموذجا

خلود بنت راشد الشبانات.
قسم الأدب– كلية اللغة العربية ، بجامعة الإمام ، محمد بن سعود الإسلامية، المملكة العربية السعودية.
البريد الإليكتروني: kralshabanat@imamu.edu.sa

الملخص:

جاءت هذه الدراسة المعنونة بـ "اختيارات شوقي ضيف للمدونة الفردية في النثر العربي الجاحظ أنموذجا" معنيةً بالكشف عن منهجه، والمعيار الذي سار عليه في اختياراته من الأدب النثري عند تعامله مع مبدع أدبي واحد، ومبرزة طريقته في معالجة نصوصه النثرية، وكاشفة عن نظرته النقدية والأدبية إليه، وتنتظم هذه الدراسة في مدخل يستعرض أهم كتابين لشوقي ضيف في هذا السياق، هما "الفن ومذاهبه في النثر العربي"، و"تاريخ الأدب العربي"، ثم أقسام خمسة تدرس موقف شوقي ضيف من الجاحظ، و تكشف عن اختيارات شوقي ضيف للشروط الأدبية والنقدية عند الجاحظ، وتبحث في الاختيارات التي انتخبها من مقدمات الجاحظ الإنشائية، وتتتبع الاختيارات الأدبية من إبداعات الجاحظ التي وضع أسماء أجناسها شوقي ضيف؛ وهي الرسائل، والمناظرات، والقصص، والنوادر.

ووضوح إدراك شوقي ضيف بغياب الاستعمال لبعض مفردات التعبير، أو التحول الاستعمالي بين عصر الجاحظ والعصر الحديث الذي ألف فيه مؤلفاته؛ يظهر هذا الإدراك بإضافة معاني مفردات الجاحظ القديمة توضيحا للدلالة، وتحرزا من انحراف المعنى عن أصله

الكلمات المفتاحية: اختيارات، شوقي ضيف، المدونة الفردية، النثر العربي، الجاحظ

Shawqi Daif's Choices for Almodawna Alfardyah in Arabic Prose
The model of Aljahez

Kholod bint Rashid Al-Shabanat.

Department of Literature - Faculty of Arabic Language, Imam University, Mohammed bin Saud Islamic, Saudi Arabia.

E-mail: kralshabanat@imamu.edu.sa

Abstract:

This study entitled "The choices of Shawqi Daif for Almodawna Alfardya in the Arabic prose- Aljahez as a model", its aim is to show the method of the blog and the followed standard to choose from the literary prose when he deals with just one creative author highlighting his way in manipulating prose. Besides, his critical and literal viewpoints are revealed herein.

This study is organized in an introduction that reviews the most two important books of Shawqi Daif in this context. "The art and its directions in the Arabic prose" and "History of Arab literature", then five sections examining the position of Shawqi Daif and Aljahez, revealing the choices of Shawqi Daif of literary and critical conditions at Aljahez, looking at the choices elected by Shawqi Daif; They are messages, debates, stories and anecdotes.

The clarity of Daif's perception of the absence of using some of the expressions of expression, or of the

usage shift between the age of Aljahez and the modern era in which it is composed; This realization appears by adding the meaning of the old vocabulary of Aljahez to clarify the meaning, and considering the deviation of the meaning from its origin.

Keywords: Choices, Shawqi Daif, Almodawna Alfardyah, Arabic Prose, Aljahez.

المقدمة:

الأدب العربي وتاريخه من القضايا التي شكلت مجالا بحثيا جذب إليه محاولات الرصد والتتبع، وأشهر المشتغلين العرب في هذا المجال الباحثُ المصري د. شوقي ضيف –رحمه الله– في أبرز دراساته للأدب العربي المتمثلة في مؤلفيه "الفن ومذاهبه" و"تاريخ الأدب العربي"، واستنفد فيهما جهدا هائلا لتنضيد التراث الأدبي المتراكم من الجاهلية إلى عتبة العصر الحديث؛ مهتما بشقي الأدب؛ الشعر والنثر، ومع توجه الذائقة البحثية العربية في العصر الحديث إلى "الشعر والشعراء" اتساقا مع ضخامة الاهتمام به من عصر التدوين حتى غدا "ديوان العرب"، وتتبُّعها طرق جمعه ودراسته؛ جاء بحث الإبداع النثري تبعا له دون تخصيص، لكن شوقي ضيف اهتم بتتبع ذلك الإبداع، واهتم بالإنصاف البحثي في الصنفين في كتابيه، فدرس تاريخ النثر العربي وأعلامه، واستعرض مدونة واسعة منه بعد فراغه من دراسة الشعر؛ ولقي نتاجه انتشارا في العالم العربي بين الدارسين والباحثين، وتعددت الدراسات النقدية حوله وحول طريقته التأليفية؛ من تلك الدراسات ما جمعه طه وادي في كتاب وسمه بـ "شوقي ضيف سيرة وتحية"، من مؤلفات ومنشورات عن نتاج شوقي ضيف في الأدب والبلاغة والنقد، تاريخا وتحليلا ، وبقيت دراسة الاشتغال النثري عنده غير مخدومة، وكانت الدراسات خارج هذا الكتاب عامة عن مؤلفات شوقي ضيف، مركزة على منهجه في التاريخ للشعر وتحليله.

ولذا جاءت هذه الدراسة تخدم الكشف عن طريقة شوقي ضيف في التعامل مع النثر، وعن نظرته النقدية والأدبية إليه، واتخذت الدراسة التراث النثري للجاحظ ميدانا لها، إذ جاء استقراء شوقي ضيف للجاحظ وآثاره الأدبية في منظومة التاريخ الأدبي النثري أكثرها غزارة، وأوسعها مساحة، وأشدها

تفصيلا لما يمثله الجاحظ بوصفه قمة المنحنى الصاعد في الإبداع النثري الذي تمثلت فيه عوامل اكتمال التكوين في أوج الحضارة العربية، وأدت بالجاحظ إلى بلوغ المنزلة العليا في كتاب العصر العباسي الذي يمثل واسطة العقد في العصور المزدهرة للأدب العربي، يقول عنه شوقي ضيف في خاتمة كتابه "تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني في نتيجة توصل إليها بعد البحث والتحليل": "والجاحظ أكبر كتّاب العصر، بل أكبر كتاب العربية قاطبة"[١] ثم يعود لتأكيد تلك الرؤية في مقدمة الكتاب ذاته: "الجاحظ أكبر كتّاب العصر غير منازع"[٢]، وقد تشكل هذا الجزم عند شوقي ضيف بعد تكرار دراسة الجاحظ وأقرانه السابقين واللاحقين في سلسلة امتدت منذ بزوغ النثر العربي إلى عصوره المتأخرة؛ فالدراسة الأولى قد مضت في كتابه "الفن ومذاهبه في النثر العربي" السابق على كتاب التاريخ، وقد استقل مبحث الجاحظ فيه بالمساحة المضاعفة كثيرا أمام مساحة سابقيه، ومعاصريه، واللاحقين من الكتّاب.

وقد نما التوجه إلا أن منهج شوقي ضيف قد أُخذ عليه التوسع والاستطراد وغياب المعيارية في الاختيار؛ فجاءت هذه الدراسة معنية بالكشف عن المعيار أو الفكرة التي اعتمدها شوقي ضيف في بحث أدب الجاحظ، والانتخاب منه. وقد جاءت الدراسة مكونة بعد المقدمة من مدخل فيه استعراض توضيحي للكتابين وتعريف موجز بمؤلفهما، مع إلماح سريع عن الجاحظ، ثم أقسام خمسة، أولها معنيٌّ بقراءة موقف شوقي ضيف من

١ تاريخ الأدب العربي ، العصر العباسي الثاني ، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٢، د.ت. ٦٥٢.

٢ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ٧.

الجاحظ، وثانيهما معنيٌّ بدراسة اختيارات شوقي ضيف للشروط الأدبية والنقدية عند الجاحظ، وثالثها يبحث في الاختيارات التي انتخبها من مقدمات الجاحظ الإنشائية، ثم رابعها عُني بتتبع الاختيارات الأدبية من إبداعات الجاحظ التي وضع أسماء أجناسها شوقي ضيف؛ وهي الرسائل، والمناظرات، والقصص، والنوادر، وقد تذيلت الدراسةَ خاتمةٌ توضح أبرز النتائج فيها، ثم ثبت بالمصادر والمراجع.

المدخل:

* **شوقي ضيف:** هو أحمد شوقي بن عبد السلام ضيف الذي ولد عام (١٩١٠م) في قرية "أم الحمام" إحدى قرى محافظة دمياط بجمهورية مصر العربية، وتلقي تعليمه في مراحله الأولى بقريته؛ فقد التحق بكتاب القرية وحفظ القرآن الكريم فيه، ثم انتقلت أسرته – وهو في التاسعة من عمره– إلى مدينة "دمياط"؛ فالتحق بالمعهد الأزهري فيها؛ وبعد ذلك انتقل عنه إلى التجهيزية لدراسة الآداب، ثم التحق بجامعة القاهرة – الملك فؤاد آنذاك – طالبا في كلية الآداب قسم اللغة العربية وتخّرج فيها؛ ثم عمل موظفاً في مجمع اللغة العربية، وأتم دراسته للماجستير في اللغة العربية، ثم صار معيداً بجامعة القاهرة، ثم تدّرج في سلك التعليم الجامعي واستمر في التدريس الجامعي مضيفا إليه رئاسة مجمع اللغة العربية حتى وفاته– رحمه الله تعالى– عام (٢٠٠٥م).

وبسبب سيرته ومؤلفاته العلمية شغل عضوية هيئاتٍ علمية كثيرة في مصر وخارجها؛ من أهمها:

- عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ورئيسه منذ (١٩٩٦م).
- عضو المجالس القومية المتخصصة بالقاهرة.
- عضو المجمع العلمي بالقاهرة.
- عضو شرف في المجمع اللغوي الأردني.

وكذلك نال الجوائز العلمية الآتية:

- جائزة مجمع اللغة العربية عام (١٩٤٧م).
- جائزة الدولة التشجيعية في الآداب عام (١٩٥٥م).
- جائزة الدولة التقديرية في الآداب عام (١٩٧٩م).
- جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي عام (١٩٨٣م).

– جائزة مبارك في الأدب العربي عام (٢٠٠٢م).

وتتلمذ عنده طلاب يعدون اليوم من أعلام الدراسات الأدبية في مصر وخارجها، ويعدُّ شوقي أكثر علماء عصره نتاجا، حيث بلغت مؤلفاته حتى (٢٠٠٣م) ستة وخمسين كتابا بين تأليف وتحقيق في مجالات الدراسة الأدبية، والبلاغية، والنقدية، والنحوية، والإسلامية، وتحقيق التراث[١].

***كتابا "الفن ومذاهبه في النثر العربي" و "تاريخ الأدب العربي":**

– كتاب الفن ومذاهبه في النثر العربي هو الجزء الثاني من دراسة شوقي للفن ومذاهبه الذي خص الأول بدراسة الشعر العربي، وهو من "بواكير الأعمال التأليفية لديه، إذ أصدره بعد رسالته للدكتوراه: "الفن ومذاهبه في الشعر العربي". محتذياً فيه المنهج التأليفي ذاته، بل حتى التسمية كانت على غرارها: "الفن ومذاهبه في النثر العربي"[٢] ، وهو مؤلَّف وإن بدا نقديا فإنه ينتهج منهج تاريخ الأدب النثري؛ حيث إنه يعتمد في رصد الظواهر النقدية النثرية الطريقة ذاتها التي اعتمدها –لاحقا– في كتاب "تاريخ الأدب العربي" من العصر الجاهلي إلى العصر الحديث، ويتعمق في بحث حقائقها التاريخية، وحياة أعلامها الثقافية، والاجتماعية، وكذلك النفسية، و"يكفي للقارئ أن يرجع إلى فهرس الكتاب ليجد أن مضمونه شامل للأعصر والقضايا بل وحتى الأعلام التي اشتهرت في فن النثر العربي" [٣]، ويقول في ختام المقدمة: "كما

---

١ انظر: شوقي ضيف سيرة وتحية، دراسات في الأدب والنقد، طه وادي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م، ١٩– ٤٥.

٢قراءة في المذاهب الفنية للنثر العربي، عبد الغفار سامي، مجلة التجديد، المجلد السادس عشر، العدد الثاني والثلاثون، ١٤٣٤هـ– ٢٠١٢م، ٢٨٧.

٣ قراءة في المذاهب الفنية للنثر العربي، ١٨٧.

ينبغي أن أشير إلى أنه كانت غايتي الأساسية –منذ الخطوات الأولى فيه– أن أضع أمام القارئ الصور الدقيقة للنثر العربي في مختلف أطواره ومراحله"[1].

– تاريخ الأدب العربي هو سلسلة مترابطة للأدب العربي، سجلت خمسة عشر قرنا من تاريخه؛ بداية من ذاكرته الأولى، وأوائل روايته، مرورا بعصور ازدهاره مجتمعا، ثم تفرقه قُطريًّا، وصولا إلى عصرنا الحديث. "بعدما رأى أن جهود المحدثين من عرب ومستشرقين لم تبسط الحديث في الأدب والأدباء العرب على مر التاريخ بسطًا مفصلًا من الجاهلية إلى العصر الحديث لذلك سعى جاهدًا إلى التركيز على دراسة الأدب بمعناه الخاص، من خلال الجمع بين أنظار منهجية متباينة، لدراسة الظواهر الأدبية عصورًا واتجاهات وتيارات، أو أشكالًا أدبية، أو شخصيات أدبية، مما يسهم في نقل التصور الشمولي للأدب بشقيه "الشفاهي والكتابي" مع التأكيد أن دراسة حاضر الأدب لا تنفصل عن ماضيه لذلك لا بدّ من تأصيل الظواهر والموازنة بينها.

وقد نهج شوقي ضيف في تأريخه للأدب، منهج التقسيم إلى عصور أدبية تبعًا للتقسيمات السياسية للعصور، فقسم العصور الأدبية إلى خمسة أقسام، يبدأ أولها في العصر الجاهلي، في حين ينتهي القسم الأخير في العصر الحديث وتقسيم شوقي ضيف للعصور الأدبية، يتميز من غيره، ممن اتبعوا المنهج التاريخي في دراسة الأدب، في أنه جمع بتأريخه بين عنصري الزمان والمكان، ويتضح ذلك جليًا في عصر الدول والإمارات، وقد تناول شوقي ضيف العصر العباسي ضمن فترتين ، وهو بهذا يفترق عن الذين قسموا العصر إلى فترات عديدة، وإذ جمع شوقي ضيف في عصر الدول

١ الفن ومذاهبه، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٥، د.ت، ١٠.

والإمارات أقاليم عديدة، وأرخ لأدبها على حدّة، إلا انه أكد أن ثمة وحدة فكرية وشعورية وروحية تجمع هذه الأقاليم المختلفة، في مراحلها المتباينة المؤرخ لها، واعتاد شوقي ضيف أن يبدأ دراسته لأي عصر من العصور الأدبية المؤرخ لها، بدراسة طبيعة الحياة السياسية، والاجتماعية، والثقافية، والعقلية، ثم يتبعها بدراسة الأغراض الأدبية الشعرية منها والنثرية، ومن ثم يقدم تراجم الأدباء."[1]

***الجاحظ:** "صاحب التصانيف في كل فن"[2]، هو أبو عثمان عمرو بن بحر بن محبوب الكناني الليثي الملقب بالجاحظ، عالم البصرة المشهور، تلميذ أبي إسحاق النظام، كان مشوه الخَلق، فلقب بالجاحظ لجحوظ عينيه، ولقب كذلك بالحدقي لذات العلة، وكان الجاحظ في آخر عمره قد أصيب بالفالج، وفي محرم سنة خمس وخمسين ومائتين توفاه الله –تعالى– في البصرة وقد نيَّف على تسعين سنة رحمه الله[3]. و"ما رُزقت العربية كاتبا أكثر علما ولا أوسع مادة وأجمع لأنواع العلوم؛ معقولها ومنقولها، من الجاحظ ... قال أبو هفان: لم أر قطُّ ولا سمعت من أحبَّ الكتب والعلوم أكثر من الجاحظ، فإنه لم يقع بيده كتاب قط إلا استوفى قراءته كائنا ما كان، حتى إنه كان يكتري دكاكين الوراقين ويبيت فيها للنظر. "[4]

١منهج شوقي ضيف في دراسة الأدب العربي، هدى محمد قزع، ديوان العرب، (https://www.diwanalarab.com)، ١٤/ ٨/ ٢٠٢٢م.

٢ وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لشمس الدين بن خلكان (ت ٦٠٨-١٨١هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت، ٣/ ٤٧١.

٣ انظر: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لشمس الدين بن خلكان، ٤٧٠- ٤٧٥.

٤ الجاحظ، أئمة الأدب، خليل مردم ، مؤسسة هنداوي، مصر، ٢٠١٩م، ١/ ١٧.

وقد "عالج الجاحظ كل ما عرف لوقته من ضروب العلم؛ فكتب في التوحيد والقرآن ومذاهب الفرق الإسلامية، وكتب في الأدب وفنونه شعرا ونثرا، وجدا وهزلا، وكتب في الأخلاق والاجتماع وطبائع الناس، وكتب في الحيوان والنبات، ،لم يفته أن يكتب في الطب والكيمياء، فكأن كتبه صورة عن الكون، تبتدئ بالذر الحقير وتنتهي إلى الخالق العظيم، ولا تخطئ ما بينهما. "[1] و"لئن كان ابن المقفع إمام الكتَّاب في عصر الترجمة، فالجاحظ إمامهم في عصر الوضع والتأليف والإبداع، وتكوين الأدب الحضري المرتكز على أسس العلم والمدنية والتفكير من غير أن يفقد شيئا من فصاحة البداوة وروعتها، وهكذا فالجاحظ شرع طريقة التأليف في الأدب، ،كل من ألف بعده متأثر بطريقته شَعَرَ أم لم يشعر، قال ابن النديم في الفهرست: "ابن خلاد الرامهرمزي حسن التأليف مليح التصنيف، يسلك مسلك الجاحظ"، وقال أيضا: " الآمدي مليح التصنيف جيد التأليف، متعاطي مذهب الجاحظ فيما يعمله من الكتب." ولم يقف أثره عند هذا الحد، بل تعداه إلى أن أصبحت الكُتَّاب تترسم خطاه في الإنشاء، بل تقتبس جمله ذات الجلبة في السمع والروعة في النفس. قال القاضي الفاضل: "وأما الجاحظ فما منَّا –معشر الكتاب– إلا من دخل داره، أو شن على كلامه الغارة، وخرج وكتفه منه الكارة. "[2] ..."الجاحظ من أقدم المؤلفين في كل فن وعلم، كان معروفا لزمانه، بل يمكن أن يقال إنه هو الذي شرع التأليف في الأدب، كتبه تجمع إلي العلم والفائدةِ البراعةَ في التعبير وسحر البلاغة في الأسلوب، وتبعث الشوق على المطالعة لما فيها من النوادر والنكات الشائعة فيها، هي سنة المؤلفين من بعده، بل اقتدوا وعلى سبيلها

١ الجاحظ ، أئمة الأدب، ٢١.

٢ الجاحظ، أئمة الأدب، ٢٣.

نهجوا، لولاها لفقد كثير من آداب العرب، ولا تزال في غزارة المادة المرجع والأم، ولولا عدم تنسيقها لما فضلَها كتابٌ."[1]

ومن أهم مؤلفاته؛ كتاب البيان والتبيين، وكتاب الحيوان، وكتاب البخلاء، وكتاب التاج في أخلاق الملوك، وكتاب الدلائل والاعتبار على الخلق والتدبير، وكتاب المناظرة بين الربيع والخريف، وله من الرسائل الكثيرُ، منها رسالة التربيع والتدوير، رسالة الرد على النصارى، رسالة فخر السودان على البيضان، والقسم الأعظم من كتبه المخطوطة لا يُعلم محل وجودها، وإنما وردت أسماؤها في معجم الأدباء لياقوت الحموي[2].

١ الجاحظ، أئمة الأدب، ٣١.

٢ انظر: الجاحظ، أئمة الأدب، ٣٢ وما بعدها.

القسم الأول: موقف شوقي ضيف من الجاحظ:

يقول شوقي ضيف: "يُعدُّ الجاحظ أكبر كاتب ظهر في العصر العباسي وهو في الحق الثمرة الناضجة لكل الجهود العقلية الخصبة...وكأنه يستمد من مخازن عقلية لا تنفذ"[1]، فالمخازن العقلية هي التي تُظهر موقف شوقي ضيف من الجاحظ كاتبا موقفا تأييديًّا، تام التطابق مع شخصيته الإبداعية، لذا جاء ذكر الجاحظ مشفوعا بالإبانة عن تأثيره في مبدعي زمانه ومن جاء بعده، ورادا على انتقاد بعضهم له، يقول عن أثر الجاحظ في تشكُّل الذوق الأدبي:" وعلى هذ النحو كان ذوق بيئة المتكلمين هو الذوق الأدبي العام، وكان لذلك أثره في أن ازدهر النثر العربي وأخذت موضوعاته تتنوع تنوعا واسعا، وقاد هذا الازدهارَ الجاحظُ المتكلم المشهور. إذ نراه يُعنى بتصوير الطبقات في مجتمعه، فهو يكتب عن الأتراك والسودان والموالي والعرب والنصارى واليهود، ويفسح للطبقات العامة، فيكتب عن اللصوص والمكدين وحيلهم والقيام والمرأة، وكأنما أحدث موضوعات جديدة لكتب السمر التي كانت تُقرأ في كل مكان. وكانت قبله لا تعدو بعض كتب الآداب الفارسية وبعض قصص الحب العربية وقصص البطولة والإسرائيليات. "[2]؛ فابن المعتز كتب البديع معترفا بفضل الجاحظ، يقول: "وبذلك هيّأ فيما بعد لابن المعتز أن يكتب كتابه البديع مصورا فيه المحسنات البيانية والبديعية وفيه ينص على أن الجاحظ اكتشف بين تلك المحسنات محسنا عقليا هو "المذهب الكلامي" ويريد به الجاحظ دقة حيل المتكلمين في الغوص على الحجج والعلل والمعاذير. وظلت كتابات الجاحظ في البيان والتبيين وكذلك في الحيوان مخازن لا تنفد

١ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ، ٥٩٢.
٢ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ٥٢٤– ٥٢٥.

للبلاغيين المتأخرين، كل يأخذ منها حسب ذوقه وقدرته العقلية."[1] وكذلك فما يعد من مصادر الأدب كان للجاحظ فيه فضل، يقول عن أحدها: "وأهم كتاب قدمته هذه البيئة كتاب الكامل للمبرد، وهو معرض جيد لنماذج من الشعر، والنثر، لا تبلغ في الغرابة مبلغ نماذج ثعلب في مجالسه، ولذلك شُغف الأدباء في عصر المبرد وبعد عصره بهذا الكتاب، وعدوه أحد كتب الأدب الأربعة الأساسية. ونراه يتأثر بما كتبه الجاحظ عن فنون البيان"[2]، ويقول عن ابن المدبر ومصادره في تأليفه رسالته "العذراء": "وابن المدبر بذلك كله يلتقي بذوق علماء الكلام كما يمثلهم الجاحظ فيما حكاه من الثقافات الأجنبية... وكذلك في الأمثال والأشعار وإن كانت الأخيرة لا تستحب في مخاطبة الخلفاء، وهو في هذه الملاحظة يستمد من الجاحظ مباشرة[3]،وقد استمد منه كثيرا في رسالته. ... ويطالب في إلحاح كما طالب الجاحظ من قبله بالملاءمة الدقيقة بين الكلام وطبقات الناس...ولابد – كما قال الجاحظ مرارا وتكرارا– من المشاكلة الدقيقة بين الألفاظ والمعاني، حتى توضع الألفاظ في مواضعها، وتنزل مواطنها... ويمضي في إثر الجاحظ، فيقول إنه لا يجوز في الرسائل الإيجاز المفرط ولا استعمال الألفاظ المشتركة أو المبهمة ... ويبدئ ويعيد– على ضوء الجاحظ– في أن الألفاظ ينبغي أن توضع في مواقعها بدقة."[4] ..."وينهى –

١ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ٥١٨–٥١٩.

٢ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ٥١٩–٥٢٠.

٣ من قول الجاحظ: "وأكثر الخطباء لا يتمثلون في خطبهم الطوال بشيء من الشعر ولا يكرهونه في الرسائل، إلا أن تكون إلى الخلفاء"، البيان والتبيين، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥)، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٥، ١٩٨٥م. ١/ ١١٨.

٤ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ٥٢١– ٥٢٢.

على هدى الجاحظ– عن الألفاظ الحوشية المبتذلة. وينقل عنه إعجابه بالكُتَّاب إذ قال: "ما رأيت قوما أمثل طريقة في البلاغة من الكتَّاب. فإنهم التمسوا من الألفاظ ما لم يكن متوعرا وحشيا ولا ساقطا حوشيا"[1] ويعود إلى فكرة الوضوح الجاحظية وينقل عنه بعض كلامه... ثم يسوق صفحات جلبها من البيان والتبيين عن تعريف اليونان والروم والفرس للبلاغة. ويتلوها بما دونه عن بعض بلغاء العرب والمتكلمين مثل خالد بن صفوان وعمرو بن عبيد والخليل بن أحمد، وكل ذلك دليل واضح على أن ابن المدبر وضع نُصب عينيه في كتابه لرسالته العذراء ابن قتيبة والجاحظ، ولكن أثر الجاحظ وكتابه البيان والتبيين أبعد مدى وأعمق أثرا."[2]، فهذه الرسالة لن تنشأ لو لم يتشرب ابن المدبر عقل الجاحظ وشخصيته.

كما أنه يجعل كلام الجاحظ دليلا يمكن بسط دلالته على عصره كله؛ يقول: "وهذا الوصف الذي وصف به الجاحظ ثمامة ينطبق على كل متكلم في عصره، فقد مرنوا على الجدال ومكايلة الألفاظ وموازنة المعاني... واقرأ في كتاب الحيوان للجاحظ فلن تجد موضوعا إلا خاضوا فيه واستخرجوا منه معانيه... ويزخر كتاب البيان والتبيين بوسائلهم التي كانوا يسوقونها إلى تلاميذهم في مجالسهم..."[3]

وهو في ذات الحين لا يبتلع نقدا للجاحظ، ولا يمضيه دون بيان عواره، أو الاعتذار عن وقوعه بما يجعله معدوم الوزن في الثلب من مكانة

---

١ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ٥٢٣، نقلا عن : جمهرة رسائل العرب في عصور العربية الزاهرة، أحمد زكي صفوت، مكتبة مصطفى البابي الحلبي وأولاده، القاهرة، ١٩٣٣م ، ١٩٩/٣.

٢ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ٥٢٣.

٣ الفن ومذاهبه في النثر العربي، شوقي ضيف دار المعارف، مصر، ط٥، د.ت، ١٣٠.

الجاحظ الأدبية، نحو ما حدَّث به عن إسحاق بن وهب؛ فيقول: "ونراه في مستهل كتابه يزري على كتاب الجاحظ: "البيان والتبيين"، هذا طبيعي لأنه يمثل بيئة المتفلسفة والمترجمين التي كانت تعارض المتكلمين في مقاييسهم البلاغية، لأنه لم يستوعبوا في رأيه كتابات أرسطو في المنطق والجدل والخطابة... وينوه بالإيجاز الذي حذر الجاحظ منه... وهو أخذٌ يبدو فيه الجفاف أنه ينبو عن الذوق العربي، ولذلك لم يلق هذا الكتاب ترحيبا من المتأدبين"[1]، فشوقي ضيف يجزم بانعدام أثر ابن وهب في بيئته إذ لا قيمة لرأيه النابع من سوء فهم مرده ضعف عقل مقارنة بالجاحظ.

أما في الغض من نقد الآخرين فهو نحو مما أورده بعد استمراره في تبجيل جهود الجاحظ وأثره، يقول: "وبجانب كتب الأدب والسمر فتح الجاحظ موضوعا جديدا، هو وصف البلدان، إذ ألف كتابا سماه الأمصار وعجائب البلدان تحدث فيه عن مكة وقريش والمدينة ومصر والبصرة، وذكر خصائص كل بلدة وطباع أهلها وأثر البيئة فيها، ويبدو أنه اعتمد في وصف بعض البلدان على بعض الإخباريين مما جعله يخطئ في جوانب من كلامه على ما لاحظ المسعودي إذ يقول: "وقد زعم عمرو بن بحر أن نهر مهران الذي هو نهر السند من نيل مصر ، واستدل على أنه من النيل بوجود التماسيح فيه، ولست أدرى كيف وقع له هذا الدليل، ذكر ذلك في كتابه المترجم بكتاب الأمصار وعجائب البلدان... لأن الرجل لم يسلك البحار ولا أكثر الأسفار. إنما كان ينقل من كتب الوراقين"[2]، و"وملاحظة المسعودي صحيحة، ولكنها لا

---

١ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ٥٢٣- ٥٢٤.

٢ مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن بن المسعودي (ت ٣٤٦) ، مراجعة كمال حسن مرعي، المكتبة العصرية، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م. ١/ ١١٤.

تغض من أهمية هذا الكتاب الذي فتح به الجاحظ لمعاصريه موضوعا جديدا... والمهم أن الجاحظ أثار في كتابه فكرة البيئة وطوابعها في السكان، وقد كتبه بأسلوبه الأدبي البارع."[١]، ويتوالى الاعتذار للجاحظ عن أي وصم بخلل في كتابيه الأهم "الحيوان" و"البيان والتبيين" اللذين ألفهما في أوج اكتمال تكونه المعرفي، فيقول: "فهو يعترف بأن مرضه أدخل الخلل على تأليف حيوانه، ،مرَّ بنا أنه ألفه وهو مفلوج؛ وألف بعده كتاب البيان والتبيين، فظهر فيه الخلل والاستطراد بأوسع مما ظهر في الحيوان، لا لسبب إلا أن العلة طالت عليه، وكأن ما أمضَّه منها كان له أثره في بلبلة أفكاره واضطرابها، وحدوث كثير من النشاز فيها"[٢].

ويقول: "من يتابع درس الجاحظ يعرف أن هناك سببا مهما لتكراره في كتبه وترداده، وهو أنه لم يكن يكتب بل كان يملي، وقد ذكر ذلك صراحة في إحدى رسائله لابن الزيات إذ قال له: "إن الوراق أصبح لا يخط سطرا"...وطبع هذا الإملاء كتبه بطابع المحاضرة، ومن ثم طبعها بطابع التكرار والترادف، كما طبعها بطابع كتب الإملاءات من حيث الخلل والاستطراد والإيجاز في بعض الأشياء المهمة، والإطناب والتفصيل في بعض الأشياء التافهة"[٣]؛ فالجاحظ لا يتخلق الضعف الإبداعي عنده من ضعف عقل، بل من ضعف بدن!

ويعمد شوقي ضيف إلى تقرير المنزلة التي بلغها الجاحظ؛ فيغدو كل ما ينسب إليه مقبولا ورائجا، وإن لم يكن له حقيقة، فصاحب المؤلَّف يتذرع

١ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ٥٢٦.
٢ الفن ومذاهبه في النثر العربي، ١٦٨.
٣ الفن ومذاهبه، ١٧١.

باسم الجاحظ لقبول منجزه والاعتراف الضمني بفضله وإبداعه، فيقول عن ذلك التوسل: "مما تُرجم حينئذ أو قل مما استمد من أصول فارسية كتاب التاج المنسوب إلى الجاحظ، وقد ألفه أحد معاصريه وقدمه إلى الفتح بن خاقان وزير المتوكل"[1]؛ فالنسبة إلى الجاحظ رفعته إلى ما يقدم إلى الوزراء والملوك ويخصون به.

١ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ٥٢٥.

القسم الثاني: الاختيارات النقدية:

ينهض رصد شوقي ضيف للحركة الأدبية تاريخيا في العصر العباسي على الجاحظ، واشتراطاته في الأدب والأديب، سواء في كتابه " الفن ومذاهبه في النثر العربي" أم "تاريخ الأدب العربي العصر العباسي الثاني"، ومع أن الجاحظ ينتمي تاريخيا للأدب العباسي إلا أن شوقي ضيف جعله هدفه الذي يرجو الوصول إليه، فهو التمام الذي بلغه النثر العربي على مدى عصوره المستتبعة تاريخيا قبله وبعده؛ فغدا الجاحظ مركز الدائرة التي يطوف فيها أدباء ذلك الزمان، وإليه يحتكمون، فهو يقول عن النثر العباسي: "وقد بلغ القمة التي كانت تنتظره [أي النثر]عند الجاحظ المتكلم"[1].

يتعامل شوقي مع الجاحظ بوصفه فكرة النثر المتجسدة عقلا، إذ النثر الفكرةُ التي يلدها العقل أولا وآخرا؛ في الحين الذي يجري فيه الشعر ممتطيا جواد التجربة الشعورية واكتناز العواطف؛ فيفتتح شوقي ضيف رصده لقيمة الجاحظ الأدبية في كتابه " الفن ومذاهبه في النثر العربي" فيقول: "وعلى هذا النحو أصبح النثر العربي في العصر العباسي متعدد الفروع، فهناك النثر العلمي والنثر الفلسفي والنثر التاريخي، والنثر الأدبي الخالص، وكان في بعض صوره امتدادا للقديم، وكان في بعضها الآخر مبتكرا لا عهد للعرب به، على شاكلة ما هو معروف في كتابات سهل بن هارون والجاحظ"[2]، ومع أن شوقي ضيف أظهر "سهل بن هارون" و"الجاحظ" في مرتبة أدبية واحدة في بداية السرد التاريخي لمذهب النثر العباسي هذه، وكذلك في نهايته؛ حيث يقول: "أما الآن فنعنى بأهم من نمُّوا مذهب الصنعة في العصر العباسي

١ الفن ومذاهبه، ١٣٣.

٢ الفن ومذاهبه، ١٢٥.

بتأثير الثقافات الأجنبية الدخيلة، وهم ابن المقفع وسهل بن هارون، والجاحظ وكان أولهم مترجما، أما سهل والجاحظ فكانا أديبين يعنيان بكتابة الرسائل والكتب الأدبية، ولعلهما من أجل ذلك كانا يهتمان بفنهما وتجويد أساليبهما أكثر من اهتمام ابن المقفع، إذ كان اهتمامه ينصب غالبا على ما يترجمه ونقل معانيه، لا على طريقة الأداء والتحبير"[1] لكنه أزاح "سهل بن هارون" بين دفتي البداية والنهاية؛ فقد كتب شوقي ضيف ثلاث عشرة صفحة عن الصنعة في النثر العباسي احتلت آراء الجاحظ واختياراته عشر صفحات منها! يظهر في تلك الصفحات إعجاب شوقي ضيف بتوهج الصنعة النثرية في ذلك العصر تمثلا في الجاحظ؛ فيقول: "ويكفي أن يقرأ الإنسان "البيان والتبيين" للجاحظ وكذلك "الحيوان" ليقف على مدى ثقافته العربية، وهي في الكتاب الأخير تعانقها ثقافة عامة واسعة. "[2]، وتستهلك دراسته لصنعة الجاحظ ثلاثا وثلاثين صفحة في الحين الذي جعل لابن المقفع ثمان صفحات وسهل بن هارون عشرا فحسب؛ لذا جاءت قراءة شوقي ضيف لصنعة ذلك الزمان الأدبية مرتكزة على كتابي "البيان والتبيين" و"الحيوان" مع شذرات قليلة من مؤلفات أخرى؛ فشوقي يختار أن ينقل الاختيارات النقدية العقلية فقط، فلم ينقل الشروط الشكلية في الصوت والهيئة مثلا، تأكيدا أن الجاحظ في الأصل فكرة؛ ولذا جاء إبداعه الباقي عبر الزمن نثرا. واستقرأ شوقي ضيف نظرة الجاحظ إلى النثر، واستنتج شروطه في الكاتب والكتابة على النحو الآتي:

---

١ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني ، ١٣٤.

٢ الفن ومذاهبه، ١٢٧.

أ-شروط في شخصية الكاتب:

١-شرط أن يكون الكاتب الأدبي متنوع الثقافة عميق الدراية بالعلوم العربية والأجنبية مع اعتراف بفضل الأوائل على اللواحق: فعند الحديث عن حامل لواء النهضة في النثر العربي؛ يقول شوقي ضيف: "ولا نبالغ إذا قلنا إن المتكلمين من معتزلة وغير معتزلة نهضوا بالنثر العباسي نهضة رائعة، فقد كان المتكلم لا يحسن الكلام والاحتجاج لآرائه إلا إذا أخذ نفسه بثقافة فلسفية واسعة ، يقول الجاحظ : "ولا يكون المتكلم جامعا لأقطار الكلام متمكنا في الصناعة، يصلح للرياسة، حتى يكون الذي يحسن من كلام الدين في وزن الذي يحسن من كلام الفلاسفة، والعالم عندنا هو الذي يجمعهما"[١]، ولم يكونوا يتثقفون بالثقافة الفلسفية وحدها، بل كانوا يتثقفون أيضا بكل ضروب الثقافات التي عُرفت لعصرهم، حتى يجمعوا "التدابير العجيبة، والعلوم الغريبة، وآثار القول الصحيحة، ومحمود الأذهان اللطيفة، والحكم الرفيعة، والمذاهب القويمة، والتجارب الحكيمة، والأخبار عن القرون الماضية والبلاد النازحة، والأمثال السائرة"[٢]. ويعترف الجاحظ بقيمة ذلك كله فيقول: "ولولا ما أودعتْ لنا الأوائل في كتبها، وخلدت من عجيب حكمتها، ودنت من أنواع سيرها، حتى شاهدنا بها ما غاب عنها، وفتحنا بها كل مستغلق كان علينا، فجمعنا إلى قليلنا كثيرهم، وأدركنا ما لم نكن ندركه إلا بهم، لقد خسّ حظنا من الحكمة، ولضعف سببنا إلى المعرفة، ولو لجأنا إلى قدر قوتنا ومبلغ خواطرنا ومنتهى تجاربنا لما تدركه حواسنا وتشاهده نفوسنا لقلَّت المعرفة وسقطت الهمة

١ الفن ومذاهبه، ١٢٧، نقلا عن الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥)، تحقيق عبد السلام هارون، مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٩٦٥م،٢/ ١٤٣.
٢ الفن ومذاهبه، ١٢٧، نقلا عن: الحيوان، ١/ ٤٢.

وارتفعت العزيمة، وعاد الرأي عقيما، والخاطر فاسدا، ولكَلَّ الحدُّ وتبلَّد العقل[1] والجاحظ المتكلم لا يعبر بهذا الكلام عن وجهة نظره وحده، وإنما يعبر عن وجهة نظر المتكلمين جميعا لعصره، فقد انكبوا على قراءة الكتب المترجمة من الفلسفة وغير الفلسفة، ففاقت عقولهم وفتحت لهم مسالك وأبوابا من الفطن، وقد أقبلوا في شوق شديد على التثقف بالإسلام وتعاليمه، وباللغة العربية وكنوزها النثرية والشعرية. "[2]

ويؤكد على ذلك بالنقل عن الجاحظ: "ويقول الجاحظ إن معمرا المتكلم قال لبهلة الهندي ما البلاغة عند أهل الهند؟ قال بهلة عندنا في ذلك صحيفة مكتوبة، ولكن لا أحسن ترجمتها ولم أعالج هذه الصناعة فأثق من نفسي بالقيام بخصائصها وتلخيص لطائف معانيها، ويلقى معمر بالصحيفة التراكمية فإذا بها: "أول البلاغة ..." ومعنى ذلك كله أن المتكلمين لم يكتفوا بملاحظاتهم الشخصية في بلاغة الكلام، بل طلبوا ماعند الأمم الأخرى.

وهذا ما يعتقده شوقي ضيف شرطا، إذا تقع الاختيارات على ما يوافق القناعة الشخصية عند المختار؛ أي الفكرة المكتنزة في عقله؛ ولذا تظهر بعض نقولات شوقي ضيف التي تخالف رأيه مشفوعة بتعقيب يظهر مخالفته لها عند الكتاب الآخرين، ولا أثر لتلك التعقيبات المخالفة فيما نقله عن الجاحظ.

وجامع الرأي هذا عند شوقي ضيف ما أورده عن الجاحظ موقفا نقديا فيقول: "وبين الذوقين كان هناك ذوق ثالث معتدل، لا يغلو غلو الأولين في رفض المقاييس العربية ولا غلو الأخيرين في رفض المقاييس الأجنبية، بل يقف موقفا وسطا بين الطرفين المتعارضين، فهو يعتدُّ بالمقاييس العربية ويأخذ

---

١ الفن ومذاهبه، ١٢٨، نقلا عن: الحيوان، ٨٥.

٢ الفن ومذاهبه، ١٢٧.

منها ما يوافق العصر ويلائمه، وهو ينظر في المقاييس الأجنبية ويأخذ منها ما يتفق وروح البيان العربي، وكان يمثل هذا الذوق المتكلمون على نحو ما يلاحظ في كتاب البيان والتبيين للجاحظ، وهو فيه يعرض ملاحظات العرب منذ الجاهلية عن البيان ومقوماته ولا يكاد يترك ملاحظة هنا أو هناك لخطيب عربي إلا ويسجلها، و ينقل عن الهند واليونان والفرس آراءهم – التي استطاع الحصول عليها– في البلاغة دون أن يعلي فريقا على فريق أو ينصر فريقا ضد فريق. " [1].

٢– شرط أن يكون الكاتب قادرا عقليا على الحجاج والإقناع : يقول شوقي ضيف:" ولا نقرأ فيما خلفه هؤلاء المتكلمون حتى يبهرنا لسنهم وقدرتهم على الحجاج والإقناع، وقد كانت المناظرة في موضوع من الموضوعات تنعقد أحيانا بين اثنين منهم، فتظل أياما لا في أصول الدين ولا في الرد على الملحدين فحسب، بل في كل موضوع يمكن أن يفد إلى أذهانهم، وقد ملأ الجاحظ نحو مجلد من كتاب الحيوان بمناظرة انعقدت بين معبد والنظام في الكلب والديك أيهما أفضل، وظل يورد أدلة على كل منهما في صورة رائعة"[2]، فلا معبد ولا نظام في هذه المناظرة الطويلة؛ إذ هما صورة متخيلة في ذهن الجاحظ ينفذ من خلالهما إلى استعراض شرط قدرته العقلية كاتبا: "وكأن معبدا والنظام المعتزلين اسمان اختارهما الجاحظ ليقيم مناظرته، أما في حقيقة الأمر فليس هناك معبد ولا نظام، وإنما هناك الجاحظ للسنه وقدرته الرائعة على دراسة الموضوعات سواء اتصلت بالحيوان أو لم تتصل، وهناك العرب

١ تاريخ الأدب، العصر العباسي الثاني، ٥١٧.
٢ الفن ومذاهبه، ١٢٨.

والشعوبية التي تستقذر الكلب وحيوانات الصحراء، مما جعل الجاحظ يعقد في حيوانه مناظرة أخرى بين البعير والفيل"[١]، واختيار شوقي لهذه المناظرة المنسوبة لسانا لآخرين عند الجاحظ دون المناظرات التي خاضها الجاحظ يثبت امتثال الجاحظ للاعتراف بفضل الآخرين قبل فضله؛ لكن مع التأكيد على انتفاء الكمال العقلي لأحد؛ فمع اعتراف الجاحظ بالسبق لأساتذه النظام بقوله:"ولولا أصحاب إبراهيم وإبراهيم لهلكت العوام ...، فإنه قد أنهج لهم سبيلا، وفتق لهم أمورا، واختصر لهم أبوابا، ظهرت فيها المنفعة وشملتهم بها النعمة، إلا أنه وضح مأخذه عليه، يقول: "إنما عيبه الذي لا يفارقه ..جودة قياسه على العارض والخاطر والسابق الذي لا يوثق بمثله"[٢] ويوضح شوقي ضيف مقصود الجاحظ، ويؤيده؛ فيقول: " فهو يأخذ عليه أنه كان لا يصحح مقدمات القياس، وأكبر الظن أنه إنما كان يلجأ إلى ذلك حين تعوزه الحجة، فكان يراوغ ويعتلُّ، حتى يشكك خصمه وسامعيه، وكان يذهب هذا المذهب خاله أبو هذل العلاف، وكان يقول:خمسون شكا خيرٌ من يقين واحد"[٣].

١ تاريخ الأدب، العصر العباسي الثاني، ٥٩٨.

٢ الفن ومذاهبه، ١٢٩، نقلا عن: الحيوان، ٢٠٦/٤..

٣ الفن ومذاهبه ، ١٢٩.

ب- شروط في الكتابة:

ويلقانا في هذا العصر الجاحظ وكتابه البيان والتبيين الذي ذكرناه آنفا، وهو يشتمل على كل السلوكيات البيانية والبلاغية التي أوصى بها المتكلمون الأدباء، حتى يحوزوا لأنفسهم بيانا ناصعا رائعا. وتهمنا ملاحظات الجاحظ نفسه، لأنه هو الذي عايش العصر، وترك آثارا واضحة فيه، ويتنوع أسلوب شوقي ضيف مع شروط الجاحظ هنا أيضا؛ فإذا كان الشرط يرد على قلة نقل شاهده نصا من لسان الجاحظ، أما إن كان الشرط قد بلغ مبلغه من الأهمية عند الجاحظ، فجعل يكرره ويدور في فلكه مؤكدا عليه جاء إثبات الشرط عند شوقي ضيف مجملا بأسلوب ضيف نفسه، وهو ما سيتبين في الشروط الآتية:

١- استعمال المعجم اللفظي المشترك بين طرفي الخطاب:

أورد شوقي ضيف هذا الشرط بالمعنى في الكتابين معًا، فيقول في " الفن ومذاهبه": "ويلح الجاحظ وغيره منهم على فكرة مطابقة الكلام لمقتضى الحال، فيجعل لكل طبقة من ذلك كلاما يلائمها، حتى تفهم عنه، وحتى يصل إلى ما يريد. "[١]، ويورد شوقي ضيف في كتاب التاريخ الأدبي الآتي: "ومن أهم ما ردده طويلا فكرة مطابقة الكلام للسامعين، فلا يصح لمتكلم أن يكلم العامة بمصطلحات علم الكلام أو يكلم علماء بكلام الأعراب الممتلئ بالغريب أو بكلام العوام المبتذل المسف، يقول: "قبيح بالمتكلم أن يفتقر إلى ألفاظ المتكلمين في خطبة أو رسالة أو في مخاطبة العوام أو في مخاطبة أهله...أو في حديثه إذا حدث أو في خبره إذا أخبر، وكذلك من الخطأ أن يجلب ألفاظ الأعراب وألفاظ العوام في صناعة الكلام، ولكل مقام مقال ولكل صناعة

١ الفن ومذاهبه، ١٣٢

شكل"[1]. ثم أورد اقتباسات يسيرة عن هذا الشرط: "ومن قوله بصدد ذلك: "لكل معنى شريف أو وضيع، هزل أو جد، حرفة أو صناعة، ضربا من اللفظ هو حقه ونصيبه الذي لا ينبغي أن يجاوزه أو يقصر دونه"[2]، ...ولعله من أجل ذلك كان يدعو إلى " النظر في مواقع الألفاظ وأين استعملتها العرب"[3]، وقوله "التلاؤم التلاؤم ومطابقة الكلام لمقتضى الحال...يقول: ؛و كما لا ينبغي أن يكون اللفظ عاميا وساقطا سوقيا، فكذلك لا ينبغي أن يكون غريبا وحشيا إلا أن يكون المتكلم بدويا أعرابيا، فإن الوحشي من الكلام يفهمه الوحشي من الناس، كما يفهم السوقي رطانة السوقي"[4]. وهذا وعي باختلاف الظل المرجعي للمعجم اللفظي بين طبقة وأخرى لاختلاف أفكارها التي تنتمي إليها.

٢- التمييز بين المترادفات من المعجم اللفظي ذات الحقل الدلالي ذاته:

يقول شوقي ضيف ناقلا : "كما تحدث عن دقة استعمال الكلمات، يقول: " قد يستخف الناس ألفاظا ويستعملونها، وغيرها أحق بذلك منها، ألا ترى أن الله تبارك وتعالى لم يذكر في القرآن الجوع إلا في موضع العقاب أو في موضع الفقر المدقع والعجز الظاهر ، والناس لا يذكرون السغب ويذكرون الجوع في حال القدرة والسلامة. وكذلك ذكر المطر، لأنك لا تجد القران يلفظ به إلا في مواضع الانتقام، والعامة وأكثر الخاصة لا يفصلون بين ذكر المطر

١تاريخ الأب العربي، العصر العباسي الثاني، ٥١٨، نقلا عن: الحيوان ٣/ ٣٦٨. والبيان والتبيين ١/ ١٤٤.

٢ الفن ومذاهبه،١٦٤. نقلا عن: رسائل الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(٢٥٥)، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٤م، ١٥٩.

٣ الفن ومذاهبه، ١٦٤، نقلا عن البيان والتبيين ١/٢٠.

٤ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ٥٩٤، عن البيان والتبيين، ١/١٤٤.

وبين الغيث"[1]، فالتمييز بين المترادفات عمل عقلي بحت يعتمد على الوعي باختلاف دلالة الكلمة العقلية.

٣- الوضوح – وهو سنة عربية حتى في الشعر- المرتكز على انتفاء الاختصار، وإبعاد التكلف للإطالة:

يقول شوقي ضيف عن ذلك مثبتا تكون الجاحظ العربي: "ولا يمل الجاحظ من الدعوة إلى الوضوح، وألا يوجز كاتب ولا عالم في كلامه حتى يصبح ألغازا، وقد حمل على كتب الأخفش لما فيها من صعوبة وغموض، كما حمل على كل تكلف، يقول: "متى شاكل – أبقاك الله- اللفظ معناه، وأعرب عن فحواه، وكان لتلك الحال وقفا، ولذلك القدر لقفا، وخرج من سماجة الاستكراه وسلم من فساد التكلف كان قمينا بحسن الموقع وبانتفاع المستمع"[2]. وشوقي ضيف يتشارك مع الجاحظ في رأيه هذا، إذ ذكر نقد الجاحظ للأخفش ولم يرفقه باعتذار له، أوبيان فضله في البيان، نقيض موقفه عندما يورد – على مضض- نقدا صحيحا للجاحظ.

٤- البعد عن التكلف في الألفاظ والتصنع:

يقول شوقي ضيف عن هذا الشرط عند الجاحظ: "فقد كان يرى أن: "شر البلغاء من هَيّأ رسم المعنى قبل أن يُهيئ المعنى، عشقا لذلك اللفظ وشغفا بذلك الاسم حتى صار يجر إليه المعنى جرًّا، ويلزقه به إلزاقا، حتى كأن الله تعالى لم يخلق لذلك المعنى اسما غيره"[3] ولم يتكرر ذكر هذا الشرط؛ لأن تركه مكلف على التارك من الأصل، فلم يستلزم التكرار لأن مناقضته

١ تاريخ الأدب، ٥١٨، نقلا عن البيان والتبيين، ١/٢٠. .
٢ تاريخ الأدب العربي، ٥١٨، نقلا عن: البيان والتبيين، ٢/٧.
٣ الفن ومذاهبه، ١٦١، نقلا عن: رسائل الجاحظ، ١٥٩.

كفيلة بردع تاركه، وهو عيب واضح لن يكون بوجوده المبدع مبدعا ذائع الصيت.

٥- مطابقة الكلام للمقام الذي تجري فيه، والحالة الشعورية التي تمضي فيها:

يقول شوقي ضيف: "وتحدث كثيرا عن جزالة الألفاظ وعذوبتها، وعن تلاحمها وتنافرها وعن حسن موقعها في مكان وسوئه في مكان آخر"[١]، في هذا الشرط كتب شوقي بطريقته تلخيصا له دون نقل صريح لقول للجاحظ، وظهر سبب لجوئه لترك النقل الحرفي عن الجاحظ في قوله"وتحدث كثيرا"[٢]، وهذا عرض مصاحب للكتابة عن كاتب أسلوبه مع كثرة كتاباته يدور في فلك الاستطراد والاستزادة والإعادة مع تشعب الأفكار الناتج عن التملية؛ فشوقي ضيف لا يستحسن التكرار الحرفي في ذات الموضع، وليس بوسعه ترك الفكرة -أو ترك بعضها- مع حرص مبدعه الجاحظ على إعادة القول في الفكرة ذاتها لأهميتها.

٦- الحرص على التنغيم:

ويظهر اضطرار شوقي ضيف لانتهاج منهج التلخيص الجامع للفكرة المترددة عند الجاحظ كثيرا؛ يقول شوقي ضيف عن ذلك:"ويتوقف مرارا ليشيد بجمال اختيار الألفاظ وجودة الصياغة والسبك وحسن الرصف والنظم، ونراه ينوه بالسجع وأثره في نفوس السامعين، كما ينوه بالازدواج وما فيه من جمال صوتي، وكأنه هو الذي أعدَّ لهذين الأسلوبين كي يشيعا على ألسنة الأدباء

١ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ٥١٨.
٢ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ٥١٨.

منذ عصره"[1]. ويذكر هذا الشرط مجملا أشد إجمالا في كتاب "الفن ومذاهبه"؛ فيكتفي بقوله: "وقد وقف الجاحظ طويلا في فاتحة البيان عند فصاحة الألفاظ وتنافر الحروف... "[2]

١ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ٥١٨.

٢ الفن ومذاهبه، ١٣٣.

القسم الثالث: الاختيارات من مقدمات الكتب:

وتظهر في هذه الاختيارات إرادة التركيز على العقل وقدرته الفكرية، في التعليل لأسباب الكتابة وكيفية التأليف، ووعي شديد بما يخرج من تحت يده، فالترتيب العقلي الشديد محصلته الترتيب الظاهري كونه تابعا لا متبوعا حسب وجهة نظره، يقول: "وقد صرح بذلك غير مرة فقال إنه يعنى بتأليف كتبه ويتأنق في ترصيفها، ويقول : "لربما خرج الكتاب من تحت يدي محصفا كأنه متن حجر أملس بمعانٍ لطيفة محكمة، وألفاظ شريفة فصيحة"[1]، ويتابع مؤكدا وعيه بمؤلفاته على طولها وتنوعها، فيقول: "انظر إلى قوله في الحيوان: قد عزمت – والله الموفق– أني أوشح هذا الكتاب وأفصل أبوابه بنوادر من ضروب الشعر وضروب الأحاديث ليخرج قارئ هذا الكتاب من باب إلى باب ومن شكل إلى شكل، فإني رأيت الأسماع تمل الأصوات المطربة والأغاني الحسنة والأوتار الفصيحة إذا طال ذلك عليها، وما ذلك إلا في طريق الراحة التي إذا طالت أورثت الغفلة، وإذا كانت الأوائل قد سارت في صغار الكتب هذه السيرة كان التدبير لما طال وكثر أصلح"[2]، و"يقول بعد ذلك في وصف الكتاب: "الكتاب وعاء مُلئ علما، وظُرف حُشي ظُرفا، وإناء شُحن مزاحا وجدًّا، وأن شئت كان أبين من سحبان وائل، وإن شئت كان أعيا من باقل، وإن شئت ضحكت من نوادره، وإن شئت عجبت من غرائبه، وإن شئت عجبت من غرائب فرائده، وإن شئت ألهتك طرائفه، وإن شئت أشجتك مواعظه، ومن لك

---

١ الفن ومذاهبه، ١٦١، نقلا عن :مجموع رسائل الجاحظ وهي رسائل لم تنشر، ياول كراوس ومحمد طه الحاجري، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٣م، ١٠٢.

٢ الفن ومذاهبه، ١٦٧، نقلا عن: الحيوان، ٣/ ٧.

بواعظ مُلْهٍ، وبزاجر مغر، وبناسك فاتك، وبناطق أخرس، وببارد حار،، ومن لك بطبيب أعرابي، ومن لك برومي هندي، وبفارسي يوناني، وبقديم مولّد، وبميت ممتع، ومن لك بشيء يجمع لك الأول والآخر، والناقص والوافر، والخفي والظاهر، والشاهد والغائب، والرفيع والوضيع، والغث والسمين، والشكل وخلافه، والجنس وضده. "[1] ويتم شوقي ضيف تأكيده ذلك الوعي عند الجاحظ: "يقول بعد هذه النغمات الأولى من الكتاب بقليل: "إن كل من التقط كتابا جامعا، وبابا من أمهات العلم مجموعا كان له غُنمه، وعلى مؤلفه غرمه، وكان له نفعه، وعلى صاحبه كدُّه، مع تعرضه لمطاعن البغاة، ولاعتراض المنافسين، ومع عرضه عقلَه المكدود على العقول الفارغة، ومعانيه على الجهابذة، وتحكيمه فيه المتأولين والحسدة... وهذا كتاب تستوي فيه رغبة الأمم، وتتشابه فيه العرب والعجم. ويشتهيه الفتيان كما يشتهيه الشيوخ، ويشتهيه الفاتك، كما يشتهيه الناسك، ويشتهيه اللاعب ذو اللهو، كما يشتهيه المجد ذو الحزم، ويشتهيه الغُفْل، كما يشتهيه الأريب، ويشتهيه الغبي، كما يشتهيه الفطِن. "[2]، ويقول أيضا: "ولولا أني أتكل على أنك لا تمل باب القول في البعير حتى تخرج إلى الفيل، وفي الذرة حتى تخرج إلى البعوضة، وفي العقرب حتى تخرج إلى الحية، وفي الرجل حتى تخرج إلى المرأة، وفي الذبان والنحل حتى تخرج إلى الغربان والعقبان، وفي الكلب حتى تخرج إلى الديك، وفي الذئب حتى تخرج إلى السبع، وفي الظلف حتى تخرج إلى الحافر، وفي الحافر حتى تخرج إلى الخف، وفي الخف حتى تخرج إلى البرثن، وفي البرثن حتى تخرج إلى المخلب، وكذلك القول في الطير وعامة الأصناف، رأيت أن

١ الفن ومذاهبه، ١٧٠ ، نقلا عن: الحيوان، ٣٨/١.

٢ الفن ومذاهبه، ١٧٠، نقلا عن: الحيوان ١٠/١.

جملة الكتاب وإن كثر عدد ورقه، أن ذلك ليس مما يُمل ويعتد عليّ فيه بالإطالة، لأنه وإن كان كتابا واحدا فإنه كتب كثيرة، وكل مصحف منها فهو أمٌّ على حدة، فإن أراد قراءة الجميع لم يطل عليه الباب الأول حتى يهجم على الثاني ولا الثاني حتى يهجم على الثالث، فهو أبدًا مستفيد ومستطرف، وبعضه يكون جماما لبعض، ولا يزال نشاطه زائدا، ومتى خرج من آي القرآن صار إلى الأثر، ومتى خرج من أثر صار إلى خبر، ثم يخرج من الخبر إلى شعر، ومن الشعر إلى نوادر، ومن النوادر إلى حكم عقلية ومقاييس سِداد، ثم لا يترك هذا الباب ولعله أن يكون أثقل والملال إليه أسرع، حتى يفضي به إلى مزح وفكاهة، وإلى سخف وخرافة، ولست أراه سخفا إذ كنت إنما استعملت سيرة الحكماء وآداب العلماء"[1]. فالجاحظ ملتزم بأن طريقته عقلية في التأليف لا مجال فيها لخلط الصحيح بالسقيم الذي لا يليق! لأنه سلك مسلكا عقليا يسلكه دائما الحكماء والعلماء، ولذا يأتي تعليله العقلي لما قد يعدُّ إخلالا بالتحصيف– الذي يتوافق فيه شوقي ضيف مع الجاحظ– فيقول: "وإن وجدتم في هذا الكتاب لحنا أو كلاما غير معرب أو لفظا معدولا عن جهته فاعلموا أنا إنما تركنا ذلك لأن الإعراب يبغِّضُ هذا الباب ويخرجه من حده إلا أن أحيي كلاما من كلام متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء كسهل بن هارون وأشباهه." وشوقي ضيف يعتذر لتفلت بعض كتابات الجاحظ وخروجها عن التنضيد الملازم لها فيقول: "على أن هناك علة لاستطراد الجاحظ ذكرها صراحة في حيوانه إذ يقول: "قد صادف هذا الكتاب منى حالات تمنع من بلوغ الإرادة فيه؛ أول ذلك العلة الشديدة، والثانية قلة الأعوان، والثالثة طول الكتاب... فإن وجدت فيه خللا من اضطراب لفظ، ومن سوء تأليف، أو من

١ الفن ومذاهبه، ١٦٧، نقلا عن: الحيوان ١/ ٩٣.

تقطيع نظام، ومن وقوع الشيء في غير موضعه فلا تنكره بعد أن صورت لك حالي التي ابتدأت عليها كتابي"[1]، ويؤكد أن المرض والعزلة، وطول التأليف مظنة الخطأ: "وإنه ليقول فيه: "كان التدبير في أسماء الخطباء وحالاتهم وأوصافهم، أن نذكر أسماء أهل الجاهلية على مراتبهم، وأسماء أهل الإسلام على منازلهم، ونجعل لكل قبيلة منهم خطباء، ،نقسم أمورهم بابا بابا على حدته، ولكني لما عجزت عن نظمه وتنضيده تكلفت ذكرهم في الجملة. "[2].

١ الفن ومذاهبه، ١٦٨، نقلا عن: الحيوان ٤/ ٢٠٨.

٢ الفن ومذاهبه، ١٦٨، نقلا عن: البيان والتبيين، ٣٠٦/١.

القسم الرابع: الاختيارات الأدبية:

١ – الرسائل:

يظهر استصحاب حال الجاحظ في المحتوى الذي يقدمه للأدب العربي دائما لدى شوقي ضيف، وهي الحال التي قصد فيها شوقي ضيف إلى المؤلفات الخاتمة – تقريبا– أهمية في حياة الجاحظ، حيث كان التأليف بعد أن طال بالجاحظ العمر، واستوفى من العلم الذي ينتج من خلاله كمًّا لم يحظَ به أحد سواه، يقول شوقي ضيف عن هذه الحال: "وإنه ليقول له [أي ابن الزيات]متفكها في إحدى رسائله وقد أشار عليه أن يجلد كتبه: "جعلت كتبي مصحفا مصحفا...ورأيت أن أنظر فيها وأنا مستلق ولا أنظر فيها وأنا منتصب، استظهارا على تعب البدن، إذ كانت الأسافل مثقلة بالأعالي، وإذ كان الانتصاب يسرع في إدخال الوهن على الأصلاب. "[١]، وقد عمد شوقي ضيف إلى كتابي "الحيوان" والكتاب التالي له تأليفا "البيان والتبيين" لأنهما يقعان في الصدارة أهمية في كتب الجاحظ، استوى فيهما إبداعه النثري على سوقه[٢]، وأمّا ما استوقف شوقي ضيف هو النظام العقلي الذي جسده الجاحظ في الترسل الطويل بمحتواه المتكون من ثقافته العربية، والثقافات الأجنبية الشائعة في زمانه، وأورد جملة من الرسائل من أنواع شتى، كانت رسالة "التربيع والتدوير" تتصدرها كمًّا، وشرحا لمواضع، وتلخيصا لأخرى بحرف شوقي ضيف، ذكرها مستقلة في كتاب "الفن ومذاهبه"، ومعنونة بعنوانها بعدما

---

١ الفن ومذاهبه، ١٥٩، نقلا عن: مجموعة رسائل الجاحظ وهي رسائل لم تنشر، ياول كراوس ومحمد طه الحاجري، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٣م. ١٠٨.

٢ راجع البحث ، ٨.

استوفى شوقي ضيف تحليل الجانب العقلي في الجاحظ الأديب الكاتب، أو ما سمّاه بالصنعة الجاحظية دليلا عليها في إحدى عشرة صفحة من كتابه؛ فيقول: "ونحن نقف عند رسالة للجاحظ تجمع بين دفتيها محاسن التفكير الدقيق، والتعبير الأنيق، وهي رسالة أنشأها في هجاء أحمد بن عبدالوهاب أحد أصحاب محمد بن عبدالملك بن الزيات"[1]، وقد نهضت هذه الرسالة بشروط الدليل الذي طلبه شوقي ضيف في قراءته للجاحظ، إذ هي رسالة بين اثنين من الأعلام يظهر للعامة أنهما متكافئان، وإن كان وصف الجاحظ له يظهر خصمه مفلسا من العلم والأدب مع سوء الهيئة؛ فالرسالة حقيقية لا متخيلة، والخطاب فيها خاص مقصود، قد حولته الصنعة الجاحظية العقلية إلى عام لحالة خاصة، وأحدثت غفلة الرواة والكتبة عن أحمد بن عبدالوهاب وما قاله، وهو الذي يشارك الجاحظ في صحبة ابن الزيات. ويذكر شوقي ضيف منهج الجاحظ فيها، فيقول: "والطريف أنه لا يصل إلى ذلك (أي السخرية) لا عن طريق السب والشتم والقذف، وإنما عن طريق ما يسوقه من تهكم وسخرية لاذعة بصاحبه، فإذا هو يحتكم معه إلى نظرية الأوساط اليونانية يستمد منها متناقضاته...ومعنى ذلك أن الجاحظ بنى رسالته على فن المفارقة، هذا الفن الذي رشحت له نظرية الأوساط اليونانية عنده"[2] ولعل هذا التعقيب من شوقي ضيف على نتاج الجاحظ هو من جعل بعض الباحثين يرى أن شوقي ضيف حصر إبداع الجاحظ ومشروعه الخطابي في تمثله الفلسفة الأرسطية وما تبعها

١ الفن ومذاهبه، ١٧٧.

٢ الفن ومذاهبه، ١٨٦.

من ثقافة اليونان[1]. ويعضد هذا الرأي تعليقات متفرقة لشوقي ضيف عند استحضار رسائل الجاحظ، نحو قوله: "ونحن لا نبعد إذا قلنا إنه أهم كاتب في العصر العباسي الأول حكَّم المنطق في كل ما يصنع، فقد كان يعتمد عليه اعتمادا بالغا في جميع كتاباته، واقرأ له هذه القطعة التي يتحدث فيها عن الخير والشر وأنهما ضروريان لصلاح الكون: "اعلم أن المصلحة في أمر ابتداء الدنيا إلى انقضاء مدتها امتزاج الخير بالشر، والضار بالنافع، والمكروه بالسار، والضعة بالرفعة، والكثرة بالقلة، ولو كان الشر صرفا هلك الخلق، أو كان الخير محضا سقطت المحنة. وتقطعت أسباب الفكرة، ومع عدم الفكرة يكون عدم الحكمة، ومتى ذهب التخيير ذهب التمييز، ولم يكن للعالم تثبت وتوقف وتعلم، ولم يكن علم، ولا يعرف باب تبين، ولا دفع مضرة، ولا اجتلاب منفعة، ولا صبر على مكروه، ولا شكر على محبوب، ولا تفاضل في بيان، ولا تنافس في درجة، وبطلت فرحة الظفر وعز الغلبة، ولم يكن على ظهرها محق يجد عز الحق، ومبطل يجد ذلة الباطل، وموقن يجد برد اليقين، وشاك يجد نقص الحيرة وكرب الوجوم، ولم تكن للنفوس آمال، ولم تتشعبها الأطماع، ومن لم يعرف كيف الطمع لم يعرف اليأس، ومن جهل اليأس جهل الأمن، وعادت الحال من الملائكة الذين هم صفوة الخلق، ومن الإنس الذين فيهم الأنبياء والأولياء حال السبع والبهيمة، وإلى حال الغباوة والبلادة، وإلى حال النجوم في السخرة فإنها أنقص من حال البهائم في الرتعة، ومن هذا الذي يسره أن يكون الشمس والقمر والنار والثلج أو برجا من البروج أو قطعة من الغيم،

---

١ انظر: النص البلاغي عند الجاحظ بين قراءة شوقي ضيف وقراءة محمد العمري، عثمان عمار، مجلة القارئ للدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، المجلد ٤، العدد ٣ سبتمبر ٢٠٢١م، ٣٠٨.

أو يكون المجرة بأسرها، أو مكيالا من الماء، أو مقدارا من الهواء... وأين تقع لذة البهيمة بالعلوفة ولذة السبع بلطع الدم وأكل اللحم، من سرور الظفر بالأعداء، ومن انفتاح باب العلم بعد إدمان القرع؟ وأين ذلك من سرور السؤدد ومن عز الرياسة؟ ولو استوت الأمور بطل التمييز، وإذا لم تكن كلفة لم تكن مثوبة...ولو كان الأمر على ما يشتهيه الغرير والجاهل بعواقب الأمور لبطل النظر وما يشحذ عليه، وما يدعو إليه ولتعطلت الأرواح من معانيها والعقول من ثمارها، ولعدمت الأشياء حظوظها وحقوقها، فسبحان من جعل منافعها نعمة، ومضارها ترجع إلى أعظم المنافع، وقسمها بين ملذ ومؤلم، وبين مؤنس وموحش، وبين صغير حقير، وجليل كبير، وبين عدو يرصدك، وبين عقل يحرسك، وبين مسالم يمنعك، وبين معين يعضدك، وجعل في الجميع تمام المصلحة، وباجتماعها تتم النعمة، وفي بطلان واحد منها بطلان الجميع، قياسا قائما، وبرهانا واضحا، فإن الجميع إنما هو واحد ضم إلى واحد، وواحد ضم إليهما، ولأن الكل أبعاض، ولأن كل جثة فمن أجزاء، فإذا جوزت رفع الجميع، لأنه ليس الأول بأحق من الثاني في الوقت الذي رجوت فيه إبطال الأول، والثاني كذلك والثالث والرابع حتى تأتي على الكل وتستفرغ الجميع"[1]، وتمييز الجاحظ بإجادة المنطق في كتاباته لا تعني أنه أسير ذلك دائما عند شوقي ضيف، فالجاحظ متأصل الثقافة العربية قبل هذا كله، وكل قوله عربي خالص، وإنما هو يستعمل ما يحتاج إليه في موضعه، يظهر هذا في الرسائل الإخوانية حسب تصنيف شوقي ضيف، وقد نقلها من غير مؤلفات الجاحظ، لأن المواقف الاجتماعية تتخلى عن السياج العقلية الصارمة وتتلبس ببعض ليونة العواطف، لكن الجاحظ رغم هذا لم ينسلخ عن الكتابة من خلال جدل

١ الفن ومذاهبه، ١٧٤، نقلا عن :الحيوان ، ١/ ٢٠٤.

عقلي؛ يقول: "فمن ذلك أن صديقه ابن الزيات تلون له وتنكر فترة إذ أحس انشغاله عنه، فكتب إليه الجاحظ يستعطفه بالرسالة الآتية: " أعاذك الله من سوء الغضب، وعصمك من سرف الهوى، وصرف ما أعارك من القوة إلى حب الإنصاف، ورجح في قلبك إيثار الأناة (الحلم) فقد خفتُ –أيدك الله– أن أكون عندك من المنسوبين إلى نزق السفهاء، ومجانبة سبل الحكماء، وبعد فقد قال عبد الرحمن بن حسان بن ثابت:

وإن أمرأً أمسى وأصبح سالما من الناس إلا ما جنى لسعيدُ

وقال الآخر:

ومَن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطلِ

فإن اجترأت عليك– أصلحك الله– فلم أجترئ إلا لأن دوام تغافلك عني شبيه بالإهمال الذي يورث الإغفال، والعفو المتتابع يؤمن من المكافأة (المجازاة) ولذلك قال عيينة بن حصن بن حذيفة لعثمان رحمه الله: عمر كان خيرا لي منك: أرهبني فأتقاني، وأعطاني فأغناني، فإن كنت لا تهب عقابي – أيدك الله– لحرمة، فهبه لأياديك عندي، فإن النعمة تشفع في النقمة، وإلا تفعل ذلك لذلك فعد لحسن العادة، وإلا فافعل ذلك لحسن الأحدوثة، وإلا فأت ما أنت أهله من العفو، دون ما أنا أهله من استحقاق العقوبة، فسبحان من جعلك تعفو عن المتعمد، وتتجافى عن عقاب المصر، حتى إذا صرت إلى من هفوته بكر (أولى) وذنبه نسيان، ،من لا يعرف الشكر إلا لك، ولا الإنعام إلا منك هجمت عليه بالعقوبة. واعلم– أيدك الله– أن شين غضبك على كزين صفحك عني، وأن موت ذكرى مع انقطاع سببي منك كحياة ذكري مع اتصال

سببي بك، واعلم أن لك فطنة عليم، وغفلة كريم، والسلام"[1]. فالرسالة لابن الزيات الذي ربطته علاقة صداقة بابن عبد الوهاب المهجو في التربيع والتدوير، فإذا كانت رسالة التربيع والتدوير وقريبا منها رسالة الشر والخير تنتهجان نهج المنطق العقلي، وتغفلان المشاعر وإثارتها عند قارئها، فإن هذه الرسالة اعتذار واستعطاف ارتكزت على إثارة العاطفة نحوه، بقياس الموقف اللحظي إلى الماضي العربي مبتعدة عن قياس صحة الفكرة، ويظهر إدراك شوقي ضيف للغياب الاستعمالي للألفاظ العربية عبر الفارق الزمني، أو تحول دلالاتها إلى أخرى ، فيضيف معاني تلك الألفاظ بين قوسين توضيحا للدلالة التي يقصدها الجاحظ، وتحرزا من انحراف المعنى عن أصله.

ولأن دراسة شوقي ضيف للجاحظ تعتمد المسار التاريخي والنفسي والأدبي مع منطلقها العقلي، فقد جاء اختياره من رسائل الجاحظ ما تظهر فيه هذه الاتجاهات النقدية كلها، فيقول: "ونكتفي بعرض رسالة منها ولتكن رسالته في فخر السودان على البيضان...يقول: "الناس مجمعون على أنه ليس في الأرض أمة السخاء فيها أعم وعليها أغلب من الزنج ... وهم أطبع الخلق على الرقص الموزون من غير تأديب ولا تعليم. وليس في الأرض أحسن حلوقا منهم، وليس في الأرض أخف على اللسان من لغتهم، ولا في الأرض قوم أذرب (أفصح) ألسنة، ولا أقل تمطيطا منهم... والرجل منهم يخطب عند الملك بالزنج من لدن طلوع الشمس إلى غروبها، فلا يستعين بلفتة ولا بسكتة حتى يفرغ من كلامه، وليس في الأرض أمة في شدة الأبدان وقوة الأسر أعم

---

١ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ٦٠١، نقلا عن: زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق إبراهيم الحصري القيرواني (ت ٤٥٣)، ضبط وشرح زكي مبارك، ومحمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٤، د.ت. ١٠٨/٢.

منهم فيهما، وإن الرجل ليرفع الحجر الثقيل الذي تعجز عنه الجماعة من الأعراب وغيرهم، وهم شجعان أشداء الأبدان أسخياء. وهذه هي خصال الشرف، والزنجي مع حسن الخلق وقلة الأذى لا تراه أبدا إلا طيب النفس ضحوك السن حسن الظن، وهذا هو الشرف...(...) ثم يقول بلسانهم: "ونحن أهول في الصدور وأملأ للعيون... كما أن الليل أهول من النهار... ودُهم الخيل أبهى وأقوى، والبقر السود أحسن وأبهى، وجلودها أثمن وأنفع وأبقى، والحُمُر (ج حمار) السود أثمن وأحسن وأقوى، وسود الشاء أدسم ألبانا وأكثر زبدا... وكل جبل وكل حجر إذا كان أسود كان أصلب صلابة، وأشد يبوسة، والأسد الأسود لا يقوم له شيء، وليس من التمر شيء أحلى حلاوة من الأسود، ولا أعم منفعة ولا أبقى على الدهر، والنخيل أقوى ما تكون إذا كانت سود الجذوع،... وأحسن الخضرة ما ضارع السواد، قال الله عز وجل :(ومن دونهما جنتان) ثم قال لما وصفهما وشوَّق إليهما: (مدهامتان) قال ابن عباس: خضراوان من الري سوداوان، وليس في الأرض عود أحسن خشبا ولا أغلى ثمنا ولا أثقل وزنا... ولا أجدر أن ينشب فيه الخط من الآبنوس... والإنسان أحسن ما يكون في العين ما دام أسود الشعر، وكذلك شعورهم في الجنة، وأكرم ما في الإنسان حدقتاه وهما سوداوان، وأكرم الكحل الإثمد، وهو أسود ... وأنفع ما في الإنسان له كبده"[1]، فهذا المقطع من الرسالة يظهر أن الجاحظ تخلى عن منهج المفارقات والمقارنة الصريحة، وانتهج نوعا من أنواع التدريج في الصفات بين الأعراق، فالخيرية في كلٍّ، لكن أعلى مراتبه في

١ تاريخ العربي، العصر العباسي الثاني، نقلا عن: لأدب ٦٠٣، رسائل الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(٢٥٥)، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٤م، ١/ ١٧٧-١١٦.

الصفات المذكورة هو في الزنوج، وقد نبه شوقي إلى الحال التي دالت بالجاحظ إلى إنشاء هذه الرسالة فالظرف التاريخي يظهر التَّنفُّذ والخطورة التي وصل إليها الزنج في زمان الجاحظ[١]، وألمح إلى الظرف النفسي الذي دفعه إن كان المروي عنه في أصله الإفريقي صائبا[٢]، لكن تكونه المنتمي إلى ثقافة عرق عربي يختلف عن الزنج ردعه عن إنشاء المفارقات المشوهة في هذه الرسالة وهذا المقطع الذي انتخبه شوقي ضيف عنه.

٢ – المناظرات:

لم يورد شوقي ضيف من مناظرات الجاحظ إلا واحدة سجلها الجاحظ في كتابه الحيوان، مناظرة طويلة بين "الديك والكلب"، يقول شوقي ضيف: "ولعل أكبر مناظرة ساقها مناظرة النظام ومعبد في الكلب والديك أيهما أفضل، إذ شغلت نحو مجلد ونصف كم كتاب الحيوان، ويذكر أن الغرض منها بيان حكمة الله وتدبيره في الكلب والديك، يقول : "إنما نتنظَّر (نجادل) فيما وضع الله عز وجل فيهما من الدلالة عليه وعلى إتقان صنعه وعلى لطيف حكمته..." ثم يذكر ما ذكره الجاحظ من تلخيص للمناظرة المتخيلة: "ولخص ذلك يقول: "باب ما ذكر صاحب الديك من ذم الكلاب وتعداد أصنافها... "[٣] ويتبع هذا بمواضع متعددة منها تختص بالحديث الصريح عن الكلب والديك، وقد ابتعد شوقي ضيف عن المواضع التي استطرد فيها الجاحظ عما ذكر عرضيا في صفة أحدهما تمثيلا، ثم يختم بمقطع يذكر فيها النهج المعتمد في

١ انظر : تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ٦٠٥.
٢ انظر: تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ٦٠٥ .
٣ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ٥٩٦.

المنطق والقياس عند المحاجة العقلية التي اعتمدها الجاحظ، يقول: "ومما احتج به صاحب الديك من محاسنه صياحه الدال على معرفته لساعات الليل في الفجر وغير الفجر، حتى كأنه فوق الإسطرلاب الذي يرصد الفلك ومنازل القمر، ويرد عليه صاحب الكلب هذه المحمدة، لأن الحمار يشرك الديك فيها بنهيقه في الأسحار، يقول: "لولا أن وجدنا الحمار المضروب به في المثل في الجهل يقوم في الصباح وفي ساعات الليل مقام الديكة لقد كان ذلك قولا ومذهبا غير مردود، ولو أن متفقدا تفقد ذلك من الحمار لوجده منظوما يتبع بعضه بعضا على عدد معلوم، ولوجد ذلك مقسوما على ساعات الليل، ولكان لقائل أن يقول في نهيق الحمار في ذلك الوقت: ليس تجاوبا إنما ذلك شيء يتوافى معا، لاستواء العلة، فلم تكن للديك الموصوف بأنه فوق الإسطرلاب فضيلة ليست للحمار...والحمار أجهل الخلق، فليس ينبغي للديك أن يُقضى له بالمعرفة، والحمار قد ساواه في يسير علمه"، وعلى هذا النحو لا يدلي صاحب الديك بمحمدة إلا وينقضها النظام نقضا"[1]،و بما أن شوقي ضيف يعتمد في منهج الدراسة التاريخ والنفس وكذلك الفن، فإنه يعتمد إلى الاستقراء من خلال هؤلاء الثلاثة، ويظهر ذلك في قوله: " وكما قلنا ليس البانيان والناقضان سوى الجاحظ نفسه، فهو الذي أقام المناظرة التي ظاهرها ديك وكلب وباطنها عرب وشعوبية"[2]؛ فالجاحظ تاريخيا عاش عصر تلك الشعوبية وأوج استنسار أصحابها وهو العربي المعتد بعروبته، وهو المفكر المثقف بثقافات عصره، يكتب تجسيدا للفكرة ويدافع عنها وهذا ما تصوره هذه الرسالة وكونها تستهلك

١ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ٦٠١.

٢ تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني، ٦٠١.

كما كبيرا من ثمرة الفكر الجاحظي في مستوى نضوجه حتى صيرها الجاحظ الدليل الأول إليه مفكرا.

٣- القصص:

لم يظهر شوقي ضيف اهتماما بالجاحظ القاص عن مناقشته لرؤيته مفكرا ، إذ الفكرة المتغياة عند الجاحظ تكون في صراحتها عبر المناظرات والرسائل، لكنه عند استعراضه لحركة الأدب العربي العباسي وأنواعه كان لابد من الحضور القصصي للجاحظ، وقد ألف الجاحظ فيه قصصا وكتبا، فعرض شوقي ضيف قصة انتخبها من كتاب الحيوان العقلي، لأن لازمةَ أن النثر فكرة وعقل مازالت مستصحبة عنده، يقول: "ومن قصصه البارعة فيه – أي كتاب الحيوان– التي تصور دقة تصويره ما حكاه عن عبدالله بن سوار القاضي ووقاره في قصصه الديني ووعظه وأنه كان لا يحرك أثناء كلامه رأسه ولا يديه حتى كأن كلامه يخرج من صدع صخرة، فألح الذباب عليه يوما، ومازال به حتى أخرجه عن طبعه، فاستعان بتحريك أجفانه، ولم يجده ذلك نفعا فذبه عن وجهه بيديه، فابتعد عنه قليلا ثم عاد إليه، فدفعه بطرف كمه، ومازال يتابع ذلك. يقول: "كان لنا بالبصرة قاضٍ يقال له عبد الله بن سوار لم ير الناس حاكما قط ولا زميتا ولا ركينا ولا وقورا حليما ضبط من نفسه وملك من حركته مثل الذي ضبط وملك، كان يصلي الغداة في منزله، وهو قريب الدار من مسجده، فيأتي مجلسه، فيحتبي ولا يتكئ، فلا يزال منتصبا لا يتحرك له عضو ولا يلتفت ولا يحل حبوته، ولا يحول رجلا عن رجل، ولا يعتمد على أحد شقيه، حتى كأنه مبني أو صخرة منصوبة. فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة الظهر، ثم يعود إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى العصر ثم يرجع إلى مجلسه فلا يزال كذلك حتى يقوم إلى صلاة المغرب... كذلك كان شأنه

في طوال الأيام وفي قصارها وفي صيفها وفي شتائها، وكان مع ذلك لا يحرك يده ولا يشير برأسه، وليس إلا أن يتكلم فيوجز ويبلغ بالكلام اليسير المعاني الكثيرة. فبينما هو كذلك ذات يوم وأصحابه حواليه وفي السماطين بين يديه إذ سقط على أنفه ذباب فأطال المكث، ثم تحول إلى مؤق عينيه، فرام الصبر في سقوطه على المؤق وعلى عضه ونفاذ خرطومه كما رام الصبر على سقوطه على أنفه من غير أن يحرك أرنبته أو يغضن وجهه أو يذب بإصبعه. فلما طال ذلك عليه من الذباب وشغله وأوجعه وأحرقه وقصد إلى مكان لا يحتمل التغافل أطبق جفنه الأعلى على جفنه الأسفل لم ينهض (الذباب) فدعاه ذلك إلى أن والى الإطباق والفتح، فتنحى ريثما سكن جفنه. ثم عاد إلى مؤقه بأشد من مرته الأولى فغمس خرطومه في مكان كان قد أوهاه قبل ذلك ، فكان احتماله له أضعف وعجزه عن الصبر في الثانية أقوى، فحرك أجفانه وزاده في شدة الحركة وفي فتح العين وفي تتابع الفتح والإطباق، فتنحى عنه بقدر ما سكنت حركته، ثم عاد إلى موضعه، فمال زال يلح عليه حتى استفرغ صبره وبلغ مجهوده. فلم يجد بدّا من أن يذب عن عينيه بيده، ففعل، وعيون القوم إليه ترمقه. فتنحى عنه بقدر ما ردّ يده وسكنت حركته، ثم عاد إلى موضعه، ثم ألجأه إلى أن ذب عن وجهه بطرف كمه ثم ألجأه إلى أن تابع بين ذلك. وعلم أن فعله كله بعين من حضر من أمنائه وجلسائه. فلما نظروا إليه قال: أشهد أن الذباب ألج من الخنفساء وأزهى من الغراب! وأستغفر الله! فما أكثر من أعجبته نفسه، فأراد الله عز وجل أن يعرفه من ضعفه ما كان عنه مستورا. وقد علمتُ أني عند الناس من أزمت الناس، فقد غلبني وفضحني أضعف خلقه، ثم تلا قوله تعالى: (وإن يسلبهم الذباب شيئا لا يستنقذوه منه،

ضعف الطالب والمطلوب) "[1] وردت القصة دليلا على رأي الجاحظ في الذباب بكتابه "الحيوان" ، فانتقلت القصة إلى الاستدلال بالواقع المنقول، فالجاحظ الذي تتبع بدقة الذبابَ وتفاصيله الدقيقة في كتابه الحيوان استكمل بذات الدقة العقلية في المراقبة للدقائق وأخذَها دليلا على النتيجة ، ورسم اللوحة القصصية في بيئة مكافئة للجاحظ ومكانته الفكرية، فهذه القصةُ لم تكن عن مجاهيل، ولا عن مكان غير محدد، فعبدالله بن سوار من قضاة البصرة وأئمتها المشهورين حين الجاحظ، قد بلغ به شاهدا لا يرد على رأي الجاحظ في الذباب، والجاحظ استعمل أسلوب الخبر فقط، لكن تحول بطريقة الجاحظ الفكرية إلى قصة، فالأخبار في أصلها عند العرب تروى مختصرة مهملة التفاصيل إذ الحادثة فيها هي موضع الفائدة، لكن الجاحظ لا يروي الخبر كما ترويه العرب عادة، إذ كان تركيزه على التفاصيل الدقيقة هي أداته ودليله في الانتصار لرأيه الذي يكتب مطولات النثر فيه.

٤ – النوادر :

هذا النوع من الانتخاب جاء إضفاء لصورة الإنسان عند الجاحظ، لأن استعراض الجاحظ عند شوقي ضيف صوره عقلا على رِجلين، ثقيلا فكريا مليئا بالتفاصيل الجدلية، لذا اتجه شوقي ضيف إلى الاختصار فيها والاستعانة بمصادر أخرى لها، إذ لم يستمدها من حيوان الجاحظ بسبب الصنعة العقلية الجادة له فيه، فتنقل شوقي ضيف بين كتب الجاحظ الأخرى، واستعان بمؤلفات سواه أيضا، إذ الجاحظ لا يدون إلا ما تساوق مع فكرته وانتظم فيها، ففي الكتب التي يرصد فيها شوقي ضيف توقيت كتابة الجاحظ كتبه، ومنها

١ الفن ومذاهبه ، ١٦٤، نقلا عن: الحيوان ٣/ ٣٤٣.

البخلاء الذي يحوي نوادر بخلاء زمانه عجما وعربا، قل أن يتحدث الجاحظ في قصصه (أخباره) عن نفسه، لكن إن فعل فهو فعل التعليل لفكرته والاستدلال عليها وبأسماء أصحابها؛ يقول شوقي ضيف: "وقد صرح الجاحظ في كتاب البخلاء بأنه ألفه وهو مصاب بالفالج إذ يقول: "صحبني محفوظ النقاش من المسجد الجامع ليلا، فلما صرت قرب منزله، وكان منزله أقرب إلى المسجد الجامع من منزلي سألني أن أبيت عنده، وقال أين تذهب في هذا المطر والبرد ومنزلي منزلك، وأنت في ظلمة وليس معك نار، وعندي لبأٌ لم يرَ الناس مثله، وتمرٌ ناهيك به جودة؛ لا تصلح إلا له، فملت معه، فأبطأ ساعة، ثم جاءني بجام لبأٍ وطبق تمر، فلما مددت يدي قال أبا عثمان! إنه لبأٌ وغلظة وهو الليل وركوده، ثم ليلة مطر ورطوبة. وأنت رجل قد طعنت في السن. ولم تزل تشكو من الفالج"[1] وهذه هي النادرة الوحيدة التي انتخبها شوقي ضيف من مؤلفات الجاحظ نفسه، ولم يوردها كاملة، والجاحظ أوردها في بخلائه استدلالا على بخل محفوظ النقاش، والذي علل له بطريقة القياس والتعليل، والنتيجة التي يعتمدها الجاحظ نفسه في نقاش رأيه وأفكاره في مؤلفاته. بينما نرى أن منتخبات النوادر التي أوردها شوقي ضيف عن الجاحظ لم يدونها الجاحظ، وإنما استعان شوقي ضيف بآراء الآخرين في الجاحظ ومروياتهم عنه، فيقول: "من طرف الجاحظ في ذلك أنه قال عن نفسه: نسيت كنيتي ثلاثة أيام حتى

١ الفن ومذاهبه ، ١٦٠، نقلا عن: البخلاء. أبو عثمان عمرو بن بحر الكناني الشهير بالجاحظ (ت ٢٥٥)، تقديم: عباس عبد الساتر، دار الهلال، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ، ١٦٥.

أتيت أهلي فقلت لهم: بم أكنى؟ فقالوا: بأبي عثمان"[1] وهي من مرويات الأنباري في كتابه نزهة الألباء، ومثل ذلك رواية سقط مصدرها عند شوقي ضيف، يقول: "ويروى عنه أنه قال: "ما أخجلني إلا امرأة مرت بي إلى صائغ فقالت له: اعمل مثل هذا، فبقيت مبهوتا. ثم سألت الصائغ. فقال: هذه امرأة أرادت أن أعمل لها صورة شيطان، فقلت: لا أدري كيف أصوره. فأتت بك لأصوره على صورتك. "[2] وهي نوادر قصيرة رويت عن الجاحظ نفسه تخلت عن لازمتها العقلية التي يعتمدها الجاحظ في أخباره.

واختار شوقي ضيف النادرة الآتية، لأن لها ذات المسحة العقلية للجاحظ، ولذا جاءت أطول مبنى من سابقاتها، لكنها منتخبة من غير مؤلفات الجاحظ أيضا، واختفت الإحالة إلى مصدرها، لكنها ملتزمة بالشرط العقلي لبيان الجاحظ، وتعليل أفعاله، يقول: "نسوق له هذه النادرة التي صور فيها حمق المعلمين وضعف عقولهم لملازمتهم الصبية، قال: "كنت ألفت كتابا في نوادر المعلمين وما هم عليه من غفلة، ثم رجعت عن ذلك وعزمت على تقطيع الكتاب، فدخلت يوما قرية، فوجدت فيها معلما على هيئة حسنة، فسلمت عليه فرد علي أحسن رد، ورحب بي، فجلست عنده، وباحثته في القرآن، فإذا هو ماهر، ثم فاتحته في الفقه والنحو وعلم المعقول وأشعار العرب، فإذا هو كامل الأدوات، فقلت: هذا والله مما يقوي عزمي على تقطيع

---

١ الفن ومذاهبه، ١٥٨ ، عن نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ، أبو البركات، كمال الدين الأنباري (تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء ، الأردن، ط٣، ١٩٨٥ ، ١٤٩/١

٢ تاريخ الأدب العربي، ٦١٠ نقلا – دون إحالة– عن: المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٦، ٢/ ٢٧.

الكتاب. وكنت أختلف إليه وأزوره، فجئت يوما لزيارته وطرقت الباب، فخرجت إليّ جارية وقالت: ما تريد؟ قلت: سيدك. فدخلتْ وخرجتْ، وقالت : باسم الله! فدخلتُ إليه، وإذا به جالس كئيبا، فقلت: عظم الله أجرك (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة)، و(كل نفس ذائقة الموت)، فعليك بالصبر، ثم قلت له: هذا الذي توفي ولدك؟ قال: لا، قلت: فوالدك؟ قال: لا، قلت: فأخوك؟ قال: لا، قلت: فزوجتك؟ قال: لا، فقلت: وما هو منك؟ قال: حبيبتي. فقلت في نفسي: هذه أول المناحس، فقلت: سبحان الله! النساء كثير، وستجد غيرها، فقال: أتظنني رأيتها؟ قلت: هذه منحسة ثانية، ثم قلت: وكيف عشقت من لم ترَ؟ فقال: اعلمْ أني كنت جالسا في هذا المكان، وأنا أنظر من الطاق (النافذة) إذ رأيت رجلا عليه بردٌ (ثوب) وهو يقول:

يا أم عمرو جزاك الله مكرمة ردي عليّ فوادي أينما كانا
لا تأخذين فؤادي تلعبين به فكيف يلعب بالإنسان إنسانا

فقلتُ في نفسي: لولا أن أم عمرو هذه ما في الدنيا أحسن منها ما قيل فيها هذا الشعر، فعشقتها، فلما كان منذ يومين مرَّ ذلك الرجل بعينيه، وهو يقول:

لقد ذهب الحمار بأم عمروٍ فلا رجعت ولا رجع الحمار

فعلمت أنها ماتت، فحزنت عليها، وأغلقت المكتب، وجلست في الدار، فقلت: يا هذا: إني كنت ألفت كتابا في نوادركم معشر المعلمين، وكنت حين

صاحبتك عزمت على تقطيعه، والآن قد قويت عزمي على إبقائه، وأول ما أبدا فيه بك إن شاء الله"[1].

فالجاحظ يعطي تعليلا يجعل محيطه يتسق معه في تقبل فكرةٍ مخالفة لما هو من سائد عن المعلمين الذين هم في الأصل تكوين عقلي جيد يمتلك ذريعة تعليم القيم والأفكار للآخرين، ومازال شوقي ضيف يراعي التحول الدلالي للكلمات، فيضع بجانبها معناها حتى لا يتحول الكلام عن مراده، وتفسد النادرة.

١ تاريخ الأدب ، ٦٠٩. نقلا –دون إحالة– عن: المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي (ت ٨٥٢)، عالم الكتب، بيروت ، ط١، ١٤١٩هـ، ٤٧٦.

الخاتمة:

توصلت الدراسة إلى الآتي:

١- يظهر أن شوقي ضيف اعتمد في انتخابه على وظيفة النثر، إذ حددها بنقل أفكار، وتسييج بعضها ، ونفي أخرى، فإذا كان الشاعر شعورا فالناثر فكرة؛ هذا الاتجاه عند شوقي ضيف بتحديد الوظيفة النثرية وربطها بالمهام الذهنية نتج عنه تأييده المطلق للجاحظ والإصرار على أنه قمة الهرم في الكتابة العربية.

٢- ويعتمد شوقي ضيف في تاريخه للجاحظ في كتابيه على المنهج التاريخي والنفسي والفني ولذا جاءت اختياراته من كتابات الجاحظ متكررة أو متقاربة الخصائص الفنية التي أثبتها في الفن ومذاهبه؛ فالاستطراد وعدم وضوح طريقة الانتخاب من النتاج رأي غير صحيح!

٣- وضوح إدراك شوقي ضيف بغياب الاستعمال لبعض مفردات التعبير، أو التحول الاستعمالي بين عصر الجاحظ والعصر الحديث الذي ألف فيه مؤلفاته؛ يظهر هذا الإدراك بإضافة معاني مفردات الجاحظ القديمة توضيحا للدلالة، وتحرزا من انحراف المعنى عن أصله.

٤- قد جاءت الاختيارات وهي من أنواع مختلفة تمثل الخصائص المرصودة في دراسته، وبما أن الأسلوب هو الرجل فالجاحظ هو أسلوبه في الكتابة وأهدافه منها؛ لذا نرى شروطه مثبتة في كتاباته سواء للكاتب أو الكتاب، وخصائصه الأسلوبية والعقلية متكررة في الاختيارات المنقولة؛ حتى في المناظرات التي تمت في واقع الجاحظ حقيقية بين أحياء، نرى شوقي ضيف قد صدف عنها متجها إلى مناظرة هو صانع موضوعها ومكون أطرافها، وكذلك في الترسل مع القصص والنوادر، فصناعة الخبر النثري قدرة

عقلية قبل أن تكون بيانية؛ لأن إجراء الأفكار مجرى الأحداث يجعلها أقرب للحقيقة المصدقة، وأرحب في اكتساب مراد المنشئ منها.

المصادر والمراجع:

أ. المصادر:

١- تاريخ الأدب العربي، العصر العباسي الثاني ، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٢، د.ت.

٢- الفن ومذاهبه، شوقي ضيف، دار المعارف، مصر، ط٥، د.ت.

ب.المراجع:

١- البخلاء، أبو عثمان عمرو بن بحر الكناني الشهير بالجاحظ (ت ٢٥٥)، تقديم: عباس عبد الساتر، دار الهلال، بيروت، ط٢، ١٤١٩هـ.

٢- البيان والتبيين ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥)، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ط٥، ١٩٨٥م.

٣- الجاحظ، أئمة الأدب، خليل مردم ، مؤسسة هنداوي، مصر، ٢٠١٩م.

٤- الحيوان، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت٢٥٥)، تحقيق عبد السلام هارون، مصطفى البابي الحلبي، مصر، ط٢، ١٩٦٥م.

٥- رسائل الجاحظ، أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ(٢٥٥)، تحقيق عبد السلام هارون، مكتبة الخانجي، القاهرة، ١٩٦٤م.

٦- زهر الآداب وثمر الألباب، أبو إسحاق إبراهيم الحصري القيرواني (ت ٤٥٣)، ضبط وشرح زكي مبارك، ومحمد محيي الدين عبد الحميد، دار الجيل، بيروت، ط٤، د.ت.

٧-شوقي ضيف سيرة وتحية، دراسات في الأدب والنقد، طه وادي، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة، ط١، ٢٠٠٣م.

٨- قراءة في المذاهب الفنية للنثر العربي، عبد الغفار سامي، مجلة التجديد، المجلد السادس عشر، العدد الثاني والثلاثون، ١٤٣٤هـ- ٢٠١٢م.

٩- المستطرف في كل فن مستظرف، شهاب الدين محمد بن أحمد أبي الفتح الأبشيهي تحقيق مفيد قميحة، دار الكتب العلمية، بيروت، ط٢، ١٩٨٦م.

١٠- منهج شوقي ضيف في دراسة الأدب العربي، هدى محمد قزع، ديوان العرب، (https://www.diwanalarab.com)، ١٤/ ٨/ ٢٠٢٢م.

١١- نزهة الألباء في طبقات الأدباء، ، أبو البركات، كمال الدين الأنباري (تحقيق إبراهيم السامرائي، مكتبة المنار، الزرقاء ، الأردن، ط٣، ١٩٨٥م.

١٢- النص البلاغي عند الجاحظ بين قراءة شوقي ضيف وقراءة محمد العمري، عثمان عمار، مجلة القارئ للدراسات الأدبية والنقدية واللغوية، المجلد ٤، العدد ٣ سبتمبر ٢٠٢١م.

١٣- مجموع رسائل الجاحظ وهي رسائل لم تنشر، ياول كراوس ومحمد طه الحاجري، لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٤٣م.

١٤- مروج الذهب ومعادن الجوهر، أبو الحسن بن المسعودي (ت٣٤٦) المكتبة العصرية، مراجعة كمال حسن مرعي، بيروت، ط١، ٢٠٠٥م.

١٥ - وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، لشمس الدين بن خلكان (ت ٦٠٨-١٨١هـ)، تحقيق إحسان عباس، دار صادر، بيروت، د.ت.

references

'a almasadiru:

1- tarikh al'adab alearabii, aleasr aleabaasiu althaani , shawqi dayfa, dar almaearifi, masr, ta2, da.t.

2- alfanu wamadhahibuhu, shawqi dayfa, dar almaearifi, masr, ta5, da.t.

bi.almarajie:

1- albukhala'u, 'abu euthman eamru bn bahr alkinaniu alshahir bialjahiz (t 255), taqdima: eabaas eabd alsaatiri, dar alhilali, bayrut, ta2, 1419h.

2- albayan waltabyin , 'abu euthman eamru bn bahr aljahiz (t255), tahqiq eabd alsalam harun, maktabat alkhanji, alqahirati, ta5, 1985m.

3- aljahiz, 'ayimat al'adbi, khalil murdam , muasasat hindawi, masr, 2019m.

4- alhayawani, 'abu euthman eamru bn bahr aljahiz (t255), tahqiq eabd alsalam harun, mustafaa albabi alhalbi, masr, ta2, 1965m.

5- rasayil aljahizi, 'abu euthman eamru bn bahr aljahiza(255), tahqiq eabd alsalam harun, maktabat alkhanji, alqahirati, 1964m.

6- zahr aladab wathamar al'albab, 'abu 'iishaq 'iibrahim alhasri alqayrawanii (t 453), dabt washarh zaki mubaraki, wamuhamad muhyi aldiyn eabd alhamidi, dar aljili, bayrut, ta4, da.t.

7-shawqi dayf sirat watahiatu, dirasat fi al'adab walnaqda, tah wadi, almajlis al'aelaa lilthaqafati, alqahirati, ta1, 2003m.

8- qira'at fi almadhahib alfaniyat lilnathr alearabii, eabd alghafaar sami, majalat altajdid, almujalad alsaadis eashra, aleadad althaani walthalathuna, 1434hi- 2012m.

9- almustatrif fi kuli fanin mustazrifin, shihab aldiyn muhamad bin 'ahmad 'abi alfath al'abshihiu tahqiq mufid qamihatan, dar alkutub aleilmiati, bayrut, ta2, 1986m.

10- manhaj shawqiun dayf fi dirasat al'adab alearabii, hudaa muhamad qazae, diwan alearbi, (https://www.diwanalarab.com), 14/ 8/ 2022m.

11- nuzhat al'alba' fi tabaqat al'udaba'i, , 'abu albarkati, kamal aldiyn al'anbari (tahqiq 'iibrahim alsaamaraayiy, maktabat almanar, alzarqa' , al'urduni, ta3, 1985m.

12- alnasu albalaghiu eind aljahiz bayn qira'at shawqi dayf waqira'at muhamad aleumri, euthman eamar, majalat alqari lildirasat al'adabiat walnaqdiat wallughawiati, almujalad 4, aleadad 3 sibtambar2021m.

13- majmue rasayil aljahiz wahi rasayil lam tanshari, yawl krawis wamuhamad tah alhajiri, lajnat altaalif waltarjamat walnashri, alqahirati, 1943m.

14- murawij aldhahab wamaeadin aljawhar, 'abu alhasan bin almaseudi (t346) almaktabat aleasriatu, murajaeat kamal hasan marei, bayrut, ta1, 2005m.

15 - wafayat al'aeyan wa'anba' 'abna' alzaman, lishams aldiyn bin khalkan (t 608-181hi), tahqiq 'iihsan eabaas, dar sadir, birut, di.t.